الأخـــلاق

فى الـقـرآن والـسـنـة

(الجزء الثالث)

الدكتور
على الخطيب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
وعضواتحاد كتاب مصر وعضورابطة الأدب الاسلامى العالمية
والعميد الأسبق لكلية اللَّغة العربية
فرع جرجا – سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢١٢
ع . خ

الخطيب ،علي .

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 7–344 – 308 – 977 – 978

١. الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2012

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً وأبلغهم حجةً وبياناً ، وعلى آله وصحابته والتابعين عليهم من الله رضوانا .

أما بعد ......

فقد تأذن المولى – سبحانه وتعالى– بإتمام الجزء الثالث من الموسوعة العلمية وهى " الأخلاق في القرآن والسنة " . وقد حوى هذا الجزء بين دفتيه الموضوعات الآتية : الرهبة من الله ، معاداة الشيطان، الإخلاص ، سلامة الصدر من الأحقاد ، القوة ، الجود والكرم ، الإخاء، اختيار الصديق ، القصد والعفاف ، النظافة والتجميل والصحة، الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن ، التقوى، الاستقامة، إكرام الضيف وإطعام الطعام فإن كنت قد وفقت فلله الحمد والمنة ، وإن كانت الأُخرى فحسبي أنى اجتهدت .

أ . د / على الخطيب

الأستاذ فى جامعة الأزهر الشريف

الرهبة من الله

ومن الأخلاق التى يرشدنا إليها القرآن الكريم " الرهبة من الله " . فإن الخوف من الله – سبحانه وتعالى – وخشيته تجعل المؤمن يجتنب ما نهى الله عنه، ويفعل ما أمره الله به وبذلك ينجو من الوقوع في المعصية ، وينأى بنفسه عن ارتكاب المناكر، وأقتراف الآثام ، وأجتراح السيئات . يقول الله تعالى: ﴿....وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ [سورة الطلاق:٣]

وحول الرهبة من الله -عز وجل- تتحدث هذه الآيات التى سنقوم بإذن الله بسردها ، وشرحها ووفائها حقها ، وذلك بعون الله- سبحانه وتعالى- يقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة البقرة:٤٠]

والمعنى : يا أبناء النبي الصالح " يعقوب "- عليه السلام - اذكروا ما أنعمت عليكم به ، وعلى آبائكم من نعم لا تعد ولا تحصى ، وأوفوا ما عاهدتموني عليه من الإيمان والطاعة أوف لكم بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب .

فلو أنهم آمنوا بما أنزل إليهم ، وآمنوا بمحمد- ﷺ -، واتبعوا النور الذى أنزل معه لكانوا من الفائزين . أما عهد الله لهم فإنه يُمَكْن لهم في الأرض المقدسة ، ويرفع لهم السعادة في الآخرة . ولما كان من موانع الوفاء بالعهد خوف بعضهم من بعض ،ذُكِــــرَ هنا أن الخوف يجب أن يكون من الله وحده فقال : ﴿....فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [سورة النحل:٥١]

يعنى : لا ترهبوا ولا تخافوا إلا من بيده مقاليد الأمور كلها ، وهوالله الذى أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى ، وهو القادر وحده على ساحبها منكم ، وعلى عقوبتكم على ترك الشكر عليها ، ولا يرهب بعضكم بعضا خوف فوت المنافع ونزول

بعض الأضرار إذا أنتم اتبعتم الحق ، وخالفتم غيركم من الرؤساء ، وفي المعنى ذاته يقول – سبحانه وتعالى - : ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة:١٥٠] . والمعنى : ومن أي مكان خرجت ، وفي أي بقعة حلت ، فول وجهك في صلاتك شطر المسجد الحرام وقد أعاد الأمر مرة أخرى لتبيان أن هذا التولى عام في كل زمان ومكان . ولا يختص بلاد دون بلاد أخرى ، ولا بحضر دون سفر لا بالصلاة التى كان يصليها وقد نزل عليه التحويل فيها ، بل هو شريعة عامة في كل حين وفي كل مكان ، وإن أصحاب هذه القبلة يصلون إلى جميع الجهات نوليهم إياها في بقاع الأرض المتباينة شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً .

ثم أكد ذلك ووثقة بقول الحق تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة يونس:١٠٨]

والمعنى : إن توليك إياه لهو الحق من ربك . الحق الثابت الموافق للحكمة والمصلحة والله ليس بغافل عن أعمالكم وإخلاصكم في متابعة النبي- ﷺ - وفي كل ما يجئ به من أمور الدين ، وسيجازيكم بذلك خير الجزاء .

وغير خَافٍ ما في هذا الوعد والبشارة للمؤمنين بنيل المكافأة على ما يفعلون ومن حيث خرجت في أسفارك في المنازل القريبة ، أو البعيدة فول وجهك جهة المسجد الحرام وحيثما كنتم من أقطار الأرض مقيمين ، أومسافرين وصليتم فولوا وجوهكم شطره . وأعاد الأمر مرة ثالثة عناية بأمر هذا التولى ، وليرتب عليه الحكم والمنافع الثلاث الآتية وهى :

أولاً : لئلا يكون للناس عليكم حجة ، يعنى لئلا يكون للمشركين والكفار عليكم حجة وسلطان . خاصةً أنهم كانوا يعلمون من كتبهم أن النبي الذي سيبعث من ولد " إسماعيل " يكون على قبلته وهى الكعبة . فلما جاء هذا التحويل عرفوا انه الحق من ربهم .

ثانياً : " ولأتم نعمتي عليكم " . وذلك بإعطائكم قبلة مستقلة في بيت ربكم الذى وضع قواعده جدكم ، وجعل الأمم الأخرى تبعاً لكم فيه ، وطهره من عبادة الأصنام والأوثان ووجه شعوب العالم جميعاً إلى بلادكم ،وفيه الفوائد المادية والمعنوية ما يُجَلُّ حصره .

ثالثاً : " ولعلكم تهتدون " أي وليعدكم بذلك إلى الاهتداء بالثبات على الحق ، فإن ما أثاروا من فتن في أمر القبلة أظهرت قوة الحق وثباته ، وضعف الباطل وخنوعه . ولينصر الله من ينصره إن الله لقوى عزيز.

وفي المعنى ذاته يقول المولى- سبحانه وتعالى- : ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٥] . والمعنى : ليس ذلك الذى قال لكم :﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة آل عمران:١٧٣]

والمقصود من قول الشيطان هذا تثبيط العزائم ، وقتل الهمم ، فهو يخوف المؤمنين أولياءه وهم الكفار وذلك لترهبوهم وتخشوهم . ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]

حيث أنني متكفل لكم بالنصر، ودحر أعدائكم وهزيمتهم . ولكن خافوا إن كنتم مؤمنين حقاً أن تعصوا أمري فتهلكوا .

والمراد بالشيطان هنا هو" نعيم بن مسعود الأشجعى " الذى أرسله" أبوسفيان " ليثبط المسلمين . يقول " أبوحيان " : " وإنما نسب إلى الشيطان لأنه ناشئ عن وسوسته ، وإغوائه ، وإلقائه ". ويقول المراعى في تفسيره : " إنه إذا عرضت لكم أسباب الخوف ، فاستحضروا في نفوسكم قدرة الله الذى بيده كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وتذكروا وعده بنصركم ، وإظهار دينكم على الدين كله ، وأن الحق يدمغ الباطل فإذا هو زاهق ، واذكروا قوله :﴿....كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٩].

ثم خذوا أهبتكم ، وتوكلوا على ربكم فإنه لا يدع لخوف غيره مكاناً في قلوبكم . وفي هذه الآية عبر كثيرة وعظات وهى:

أولا : إن المؤمن الصادق الإيمان لا يكون جباناً فالشجاعة من صفات المؤمنين .

ثانيا : في استطاعة المؤمن مقاومة أسباب الخوف .

ثالثا : إذا عرضت له أسباب الخوف فعليه ألا يسترسل لها حتى يتمكن أثرها فى نفسه ، وتتجسم صورتها في خياله ، بل يغالبها بصرفها عن ذهنه ، وشغله بما يضاده ، ويذهب بآثارها ، أويتبدلها بآثار مناقضة لها ، وهذا يدخل في اختيار الإنسان ، وهو الذى ينيط به التكليف .

وفي المعنى ذاته يقول المولى- سبحانه وتعالى-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [سورة المائدة:٣:٤]

وقوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة المائدة:٢٨]

وفي نفس المعنى يقول الحق- سبحانه وتعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة المائدة:٩٤]

فمن الأخلاق القرآنية أن ينأي المسلم بنفسه عما حرمه الله ، ويبينه في كتابه مثل الميتة وهو ما مات حتف أنفه يعنى بدون فعل فاعل ، وفي عُرّف الشارع ما مات ولم يذكه الإنسان لأجل أكله . والدم المسفوح وهو الذى يسفح ويراق من الحيوان وإن جمد بعد ذلك مجاف المتجمد بالطبيعة مثل " الطحال ، والكبد ، وما يتخلل اللَّحم عادةً " فإنه لا يسمى مسفوحاً . والحكمة في ذلك التحريم هو الضر والاستقذار ، اما الضرر فهو" عسر الهضم ، ويحمل كثير من المواد العفنة التى تحل من الجسم وهى فضلات لفظتها الطبيعة كما تلفظ " البراز " ونحوه واستعاضت عنها بمواد جديدة من الدم . وقد يكون فيه جراثيم بعض الأمراض المُعْدِية ، ومن هنا أتفق الأطباء على وجوب غَلْيِ اللبن قبل شربه ، وذلك لقتل ما عسى أن يكون قد علق به من جراثيم الأمراض المعدية . وحرم لحم الخنزير لما فيه أيضا من الضرر والاستقذار لملازمته القاذورات ورغبته فيها . " وما أهل لغير الله به " ، والمراد ما ذبح على ذكر غير الله – سبحانه وتعالى- من المخلوقات التى يعظمها الناس تعظيماً دينياً ، ويتقربون إليها بالذبائح . وكانوا في الجاهلية يذبحون لأصنامهم ويرفعون أصواتهم قائلين " باسم اللات " أو " باسم العزى " والحكمة في ذلك أنها عبادة لغير الله تعالى . وهوسر التحريم . والمنخنقة : هى التى تخنق بشيء فتموت بسببه . والموقوذة : وهى التى تقتل بعصا ، أو بحجارة فتموت بلا زكاةٍ ، وكانوا يأكلونها في الجاهلية . والمتردية وهى التى تتردى وتقع من مكان شاهق شامخ مرتفع كجبل ونحوه . والنطيحة : وهى التى تنطحها بهيمةٍ أخرى فتموت من النطاح وما أكل السبع وهو: الذى قتله سباع الوحوش كالأسد والذئب والنمر ونحوه. لقوله"إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ " يعنى إلا ما أدركتموه ، فذبحتموه . "وما ذبح على النصب " وهى كانت حجارة حول الكعبة وعددها ستون صنماً وثلاثمائة ، وكان أهل الجاهلية يذبحون عندها تقرباً وهويعد من جنس ما أُهِلَّ به لغير الله . حيث أنه يذبح بقصد العبادة لغير الله – سبحانه وتعالى- . ﴿.....وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ

بِٱلۡأَزۡلَٰمِ .....﴾ [سورة المائدة:٣] وهى قطعه ، من الخشب على هيئة السهم بيد أنه لا يركب فيه " النصل " وكانت ثلاثة : كتب على أحدها " أمرني ربى " وعلى الثاني " نهاني ربى " وعلى الثالث " غفل ليس عليه شيء " . فإذا أراد أحدهم زواجاً أو سفراً حرك هذه الأزلام فإن خرج له " أمرني ربى " مضى لما أراد ، وإن خرج له " نهاني ربى " أحجم عن ذلك . وإن خرج " الغفل " الذى لم يكتب عليه شيء أعاد الاستقسام .

وهو: طلب معرفة ما قسم الله له دون ما لم يقسم بواسطة الأزلام والسر في التحريم أنها من قبيل الخرافات والأوهام والتى لا يركن إليها إلا مَنْ كان ضعيف العقل ومثله في عصرنا " التمائم " التى تعلق في رقاب الأطفال وضرب الودع ومشهور في صعيدنا ويعرف " بضرب الرمل " ومعرفة البخت وغير ذلك من البدع والخرافات التى تنطلي على كثرة كاثرة من الجهلة والمغفلين وما أكثرهم .

﴿.... ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ .... ﴾

[سورة المائدة:٣] وهو" يوم عرفة " من حجة الوداع من السنة العاشرة من الهجرة النبوية الكريمة وكان يوم جمعة وهو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآية المبينة لما يقر من الأحكام التى أبطل بها الإسلام بقايا مهانة الجاهلية ، وخبائثها ، وأوهامها ، والمبشرة بأنتصار المسلمين على المشركين . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله : ﴿.... ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ .... ﴾ . يقول : يئس أهل مكة أن ترجعوا إلى دينهم عبادة الأوثان أبدا . "فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ " في إتباع محمد – ﷺ – { ...وَٱخۡشَوۡنِ ... } في عبادة الأوثان وتكذيب محمد – ﷺ – . ومجمل المعنى : اليوم انقطع رجاؤهم من إبطال دينكم ورجوعكم عنه ، لما شاهدوا من فضل الله عليكم ، وإذ وفي بوعده وأظهره على الدين كله . وفي الآية بشارات ثلاث :

روى عن " ابن عباس – رضي الله عنهما – قال :لما كان النبي - ﷺ - واقفا بعرفات نزل عليه جبريل وهو رافع يده والمسلمون يدعون الله . " ... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ... " يقول : حلالكم وحرامكم فلم ينزل بعد هذا حلال ولا حرام . " ... وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ... ".قال:منتي فلم يحج معكم مشرك .﴿... وَرَضِيتُ .... ﴾ يقول : واخترت لكم الإسلام دينا مكث رسول الله - ﷺ - بعد نزول هذه الآية إحدى وثمانين يوماً ثم قبضه الله إليه .

ويقول صاحب الكشاف : " وقيل : يئسوا من دينكم أن يغلبوه؛ لأن الله عزّ وجلّ وفىَّ بوعده من إظهاره على الدين كله { ... فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ ... } بعد إظهار الدين وزوال الخوف من الكفار وانقلابهم مغلوبين مقهورين بعدما كانوا غالبين { ... وَٱخۡشَوۡنِ ... } وأخلصوا لي الخشية { ... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ...} كفيتكم أمر عدوِّكم ، وجعلت اليد العليا لكم ، كما تقول الملوك : اليوم كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد ، إذا كفوا من ينازعهم الملك ووصلوا إلى أغراضهم ومباغيهم . أو أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكليفكم من تعليم الحلال والحرام والتوقيف على الشرائع وقوانين القياس وأصول الاجتهاد { ... وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ...} بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين ، وهدم منار الجاهلية ومناسكهم وأنَّ لم يحجّ معكم مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان . أوأتممت نعمتي عليكم بإكمال أمر الدين والشرائع كأنه قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي بذلك لأنه لا نعمة أتمّ من نعمة الإسلام﴿.... وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا .... ﴾ يعني اخترته لكم من بين الأديان ، وآذنتكم بأنه هوالدين المرضي وحده . يقول- سبحانه وتعالى- : ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران:٨٥]. وفى معنى الآية ما جاء في سورة البقرة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ

ﭐللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [سورة البقرة:١٧٣] . فالمضطر غير متعد ولا متجاوز فلا إثم عليه حيث إن الله غفور رحيم .

ويقول- صلى الله عليه وسلم -: " إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّيْنُ إلاَّ غلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ " (١) .

وما زال القرآن الكريم يرشدنا إلى الأخلاق والفضائل فيقول- سبحانه وتعالى-: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة المائدة:٢٧:٢٨]. و" القربان " عند النصارى هو ما يُعَدْسه الكاهن من " الخبز والخمر " فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقةً . أما القربان لدى المسلمين فهو اسم لذبائح النُسُك مثل " الأضاحي " وغيرها . فالذي لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه ، فأجابه الآخر أحسن إجابة حيث قال له " ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ... " يعنى لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال إلا ممن يتصف بتقوى الله ، والخوف من عقابه باجتنابه الشرك ، وسائر المعاصي كالرياء ، والشح ، وإتباع الأهواء . ومجمل القول : إنني لم أفعل معك ما يكون سبباً في قتلى فإن كان الله لم يتقبل منك قربانك فأصلح نفسك وحاول أن تعرف السبب في عدم القبول . فالله يتقبل الأعمال الصالحة ومن المتقين له الخائفين منه . ويتقرب إليه بالطيبات من الأعمال . يقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٢]. وفي الحديث " إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا " . ثم يبين القرآن حرمة الدماء ، وأنه من الواجب على الناس احترامها فقال : ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

1- رواه البخارى .

[سورة المائدة:٢٨]، والمعنى لئن مددت إلى يدك لتقتلني ما مددت يدي إليك لأقتلك فلا أجازى على السيئة سيئة مثلها ، ثم يبين الله- سبحانه وتعالى- السبب في ذلك بقوله﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ فالسبب هو رهبة الله وخشية وخوف من الله - عز وجل - ، وهو جواب يحمل أبلغ المواعظ والاعتبار والأركان وهو الرهبة من الله - سبحانه وتعالى- والخوف منه فهو رب العالمين الذى رباهم على نعمه ، وخصهم برحمته .

يقول ابن عباس- رضي الله عنهما - : المعنى : ما أنا بمنتصر لنفسي . ويقول صاحب الكشاف : " كان " هابيل " أقوى من القاتل ، ولكنه تحرج عن قتل أخيه خوفاً من الله .

وقد روى " أحمد والشيخان " وغيرهم قوله - ﷺ -: " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار " . قيل : يا رسول الله ، هذا القاتل . فما بال المقتول ؟ .

قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه .

وفي الرهبة والخوف من الله يقول – سبحانه وتعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة المائدة:٩٤]. والمعنى : بعد أن نهى الله - سبحانه وتعالى- عن تحريم ما أحل من الطيبات ، ثم استثنى الخمر والميسر واستثنى هنا مما يحل الصيد في حال الإحرام ، وأوجب جزاءً على قتله ، وَبَيَّن أن صيد البحر وطعامه حلال وقد نزلت هذه الآية " عام الحديبية " حيث ابتلاهم الله بالصيد وهم مُحْرِمُون ، وكثر عندهم حتى كان يغشاهم في رحالهم فيتمكنون من صيده أخذاً بأيديهم ، وطعناً برماحهم . يقول صاحب البحر المحيط : " وكان الصيد مما تعيش به العرب وتتلذذ بأقتناصه ، ولهم فيه الأشياء والأوصاف الحسنة .

وذلك الابتلاء ليعلم الله من يخافه ويخشاه ، ويرهبه بالغيب طمعاً في رحمته وخوفاً من عذابه . ووجه الابتلاء بالصيد هو أن الصيد طعام لذيذ تشتد الحاجة إليه في الأسفار الطويلة ، وسهوله صيده وتناوله يغرى به ، اذ ترك ما لا ينال إلا بمشقة ، وجهد ونصب وتعب ، لا يدل على التقوى والرهبة من الله مثلما يدل عليه ترك ما ينال بسهولة ويسر. وذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب .(1)

وما يَـزَال القرآن الكريم يحدثنا عن الرهبة من الله – سبحانه وتعالى- فيقول: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [سورة الأنعام:١٥]. والمعنى قل لهم إنني أخاف إن عبدت غير ربى عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة . ويقول " المراغى " في تفسيره : " قل لهم إن فرض وقوع العصيان منى فإني أخاف أن يصيبني عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذى يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون . وفي الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيماً ، وأنه لا تنفع فيه الشفاعة ، بل الأمر يومئذ لله ، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظناً منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه ، وإذا كان خوف النبى- ﷺ- من العذاب على المعصية منتفياً لوجود العصمة ، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له فى جميع الأحوال .

1- تفسير المراغى جـ ١ ، ص ١٠٠ وص ١٤ – ١٨ بتصرف وأيضا جـ ٢ ص ١٣٦ – ١٣٧ ، وجـ ٢ ص ٤٧ – ٥٥ ، وجـ ٢ ص ٩٨ وما بعدها ، وجـ ٣ ، ص ٣٠- ٣١ .
- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٥٣ .
- تفسير الكشاف للزمخشرى بتصرف جـ ١ ، ص ٤٨٥ – ٤٦٨ .
- تفسير النسفى .
- تفسير القرآن الكريم لعبد الكريم الخطيب .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ١ ، ص ٣٤٠.
- تفسير الطبرى جـ ٩ ، ص ٥٠٢.
- تفسير البيضاوي ص ١٦٠ .
- تفسير البحر المحيط جـ ٤ ، ص ١٦ .

ويقول القرآن الكريم في نفس المعنى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:٥١]. والمعنى : خَوِّفَ يا محمد – عليك الصلاة والسلام – بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذين يتوقعون عذاب الحشر. يقول أبوحيان : " وكأنه قيل : أنذر بالقرآن من يرجى إيمانه ، أما الكفرة المعرضون فدعهم ورأيهم. فهؤلاء ليس لهم ولى ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ، فانذرهم لكى يتقوا الكفر والمعاصي " . ويقول- سبحانه وتعالى- أيضا : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:٨١]. والمعنى : كيف أخاف آلهتكم التى أشركتموها مع الله في العبادة وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذى أشركتم به بدون حجة ولا برهان . فَأَيُّنَا أحق بالأمن ؟ أنحن أحق بالأمن وقد عرفنا الله بأدلة ، وخصصناه بالعبادة ، أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد الديان . ؟ !! .

ثم يقول الحق- سبحانه وتعالى- : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام:٨٢]. أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك فهؤلاء لهم الأمن من العذاب يوم القيامة ، وهم على هداية ورشاد . وروى أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبى- ﷺ- فقالوا : وَأَيُّنَا لم يظلم نفسه؟. فقال النبى -ﷺ-: " ليس كما تظنون ، وإنما هو كما قال " لقمان " لإبنه: يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " . (١)

وفي باب الرهبة من الله تحدثنا " سورة الأعراف " فتقول في بعض آياتها : ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٥٦] يقول ابن كثير – رحمه

1 - الحديث فى الصحيحين .

الله تعالى - :" ينهى الله تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشيةً على السداد ، ثم وقع الإفساد بعد ذلك ، كان أضر ما يكون على العباد. فنهى الله تعالى عن ذلك ، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: { وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا } أي: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: { إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ } أي: إن رحمته مُرْصَدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى:

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ } . وقال: "قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ " . ولم يقل : "قريبة" ؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين . وقال مطر الوراق: تَنَجَّزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين فإنه أن رحمته قريب من المحسنين .

وفى آية أُخرى يقول الله – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٤]. والمعنى : لما سكت عن موسى الغضب على قومه أخذ الألواح التى كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غِيَرةً لله وغضباً له . ويقول كثير من المفسرين : " إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك؛ ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة. وأما التفصيل فذهب، وزعموا أن رضاضها لم يزل موجوداً في خزائن الملوك لبني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية، والله أعلم بصحة هذا. وأما الدليل القاطع على أنها تكسرت حين ألقاها، وهي من جوهر الجنة. فقد أخبر الله تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها هدى ورحمةً.

{ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدَّاها " باللاَّم" .
وقال قتادة: في قوله تعالى: { أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ } قال: " رب ، إني أجدُ في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي .

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون - أي آخرون في الخَلْقِ -السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها -كتابهم -وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظراً، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا منها شيئاً، ولم يعرفوه. قال قتادة: وإن الله أعطاهم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه أحداً من الأمم. قال: رب، اجعلهم أمتي.

قال: تلك أُمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها - وكان مَنْ قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه ، بعث الله عليها ناراً فأكلتها، وإن ردت عليه تُرِكَت ، فتأكلها السباع والطير، وإن الله أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم - قال: رب، اجعلهم أُمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال : رب ، إني أجد في الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف رب اجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال : رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هَم أحدهم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، فإذا عملها كتبت عليه سيئة واحدة، فاجعلهم أمتي .

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المستجيبون والمستجيباب لهم، فاجعلهم أمتي.

قال: تلك أمة أحمد.

قال: رب، إني أجد في الألواح أمة هم المشفقون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة أحمد.

قال: قتادة فذكر لنا أن نبي الله موسى - عليه السلام - نبذ الألواح، وقال اللَّهم اجعلني من أمة أحمد – صلى الله عليه وسلم – .

تلك هى الرهبة من الله – سبحانه وتعالى - ، وهى الخضوع له ، وخشيته والخوف من عقابه ، والطمع فى رحمته : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[سورة السجدة:١٦] أي : ينأى ويتنحى ويبتعد عن الفرش ساهرين اللَّيل فى طاعته ، وعبادته وتوحيده، وإجلاله طمعاً فى رحمته ، وخوفا من عذابه .

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٢٠٥]. والمعنى : يأمر الله – سبحانه وتعالى - بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله تعالى : " وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ " . وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وقال ها هنا بالغدو- وهو أوائل النهار: " وَٱلْءَاصَالِ " جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: " تَضَرُّعًا وَخِيفَةً " . أي: اذكر ربك في نفسك رهبةً ورغبةً، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: " وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ " . وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً ولا جهراً بليغاً ؛ ولهذا لما سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ . فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٨٦].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: " رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار، فقال لهم النبي- صلى الله عليه وسلم- : " أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائباً ؛ إن الذي تدعونه سميع قريب اقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " . وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله : أن المراد بهذه الآية : أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة . وهذا بعيد مُنَافٍ للإنصات المأمور به ، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواءً كان سراً أوجهراً، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين ؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [سورة الأعراف:٢٠٦] وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود ها هنا لما ذكر سجودهم لله - عز وجل - ، كما جاء في الحديث: " ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ، يتمون الصفوف الأوَل ، ويتَراصُّون في الصف " . وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع . وقد ورد في حديث رواه ابن ماجة، عن أبي الدرداء، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه عدها في سجدات القرآن .

ويقول بعض المفسرين : " دون الجهر بالقول " . يعنى : وسطاً بين الجهر والسر والغدو والآصال أي فى الصباح والعشى ولا تغفل عن ذكر الله – سبحانه وتعالى – ولا يتكبرون عن عبادة ربهم . ولا يسجدون لغيره – سبحانه وتعالى – (١) .

ومع الأخلاق القرآنية ، والتى يحثنا عليها القرآن الكريم نرى ذلك جلياً واضحاً فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٢]. يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية : " وصف الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه . ويظهر فى هذه الآية قوله – سبحانه وتعالى – : وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الحج:٣٤:٣٥]. وقال تعالى أيضا : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢٨]. فهذا يرجع إلى كمال المعرفة ، وثقة القلب ، والوجل وهو الفزع من عذاب الله . وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٣]. يعنى : تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله . فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الضغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطي ذلك وزعم أن ذلك وجل وخشوع:

1- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٢٢٢.
- ذاته ص ٢٤٩ .
- ذاته ص ٢٨١ .
- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٤٨٩ .

لم تبلغ أن تساوي حال الرسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله.

ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة المائدة:٨٣]. فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم.

ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، فمن كان مستنا فليستن ، ومن تعاطي أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً، والجنون فنون . روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى أحفوه في المسألة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: " سلوني لا تسألوني عن شئ إلا بينته لكم ما دمت في مقامي هذا ".

فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يديه أمر قد حضر.

قال أنس: فجعلت ألتفت يميناً وشمالاً فإذا كل إنسان لاف رأسه في ثوبه يبكي وروى الترمذي وصححه عن العرباض بن سارية ، قال: وعظنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - موعظة بليغة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب.

وسأل رجل " الحسن " فقال: يا أبا سعيد ، أمؤمن أنت ؟ .

فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن .

- وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: " إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ - إلى قوله - أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا " فوالله ما أدري أنا منهم أم لا . وقال أبوبكر الواسطي : من قال أنا مؤمن بالله حقاً ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع وإحاطة ، فمن فقده بطل دعواه فيها . يريد بذلك

ما قاله أهل السنة : إن المؤمن الحقيقي من كان محكوماً له بالجنة ، فمن لم يعلم ذلك من سر حكمته تعالى فدعواه بأنه مؤمن حقاً غير صحيح .

وحول الرهبة من الله – عز وجل – تتحدث هذه الآيات من سورة التوبة ، وهى قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾ [سورة التوبة:١٣]. والمعنى : توبيخ وفيه معنى التحضيض نزلت في كفار مكة كما ذكرنا آنفا وهموا بإخراج الرسول – صلى الله عليه وسلم – أي كان منهم سبب الخروج فأضيف الإخراج إليهم وقيل : أخرجوا الرسول عليه الصلاة والسلام من المدينة لقتال أهل مكة للنكث الذي كان منهم عن الحسن وهم بدأوكم بالقتال أول مرة أي نقضوا العهد وأعانوا " بني بكر" على " خزاعة " وقيل : بدءوكم بالقتال يوم بدر لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – خرج للعير ولما أحرزوا عيرهم كان يمكنهم الانصراف فأبوا إلا الوصول إلى بدر وشرب الخمر فيها ، حيث قال أبوجهل لن نغادر بدر حتى يرهبنا الناس ." فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ " . يعني تخافوا عقابه في ترك قتالهم من أن تخافوا أن ينالكم في قتالهم مكروه . وقيل : إخراجهم الرسول منعهم إياه من الحج والعمرة والطواف وهو ابتداؤهم . ينهاهم القرآن عن خشية أحد سوى الله فهو أحق بالخشية والخوف لأنه خالقهم ، وناصرهم على أعدائهم ، وهوالقادر على كل شيء فالله – سبحانه وتعالى – أحق بالخشية والرهبة ، فواجب المسلم ألا يرهب أحدا غير الله ، فهوا المالك لكل شيء وهو المحيي والمميت ، والمعز والمذل ، والقاهر ، والرازق ولا يقدر على ذلك غير الله ، فهو أحق بأن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

وفى نفس المعنى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [سورة التوبة:١٨].

والمعنى : " إنما تستقيم عمارة المساجد ، وتليق بالمؤمن المصدق بوحدانية الله ، الموقن بالآخرة ، وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة المفروضة بشروطها ، ولم يخف سوى الله – سبحانه وتعالى – ، ولم يرهب أحداً سواه فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين وفى زمرتهم يوم القيامة .

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – : " كل عسى فى القرآن واجبة " . قال الله تعالى لنبيه – صلى الله عليه وسلم – : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [سورة الإسراء:٧٩]. يقول : " إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً وهى " الشفاعة " ويقول أبو حيان : " وعسى من الله تعالى واجب حيثما وقعت في القرآن، وفي ذلك قطع أطماع المشركين أن يكونوا مهتدين إذ مَن جمع هذه الخصال الأربعة جعل حاله حال من ترجى له الهداية ، فكيف بمن هو عَارٍ منها ؟ . وفي ذلك ترجيح الخشية على الرجاء ، ورفض الاغترار بالأعمال الصالحة ، فربما دخلها بعض المفسدات وصاحبها لا يشعر بها .

وفى معنى الرهبة من الله يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [سورة هود:٢٣]. والمعنى : هؤلاء الذين جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح " الإخبات " وهو الاطمئنان إليه – سبحانه وتعالى – ، والخشوع له ، والانقطاع لعبادته ، أولئك المُنَعَّمُون فى الجنة لا يخرجون منها البتة . وهذا جزاء الرهبة من الله وخشيته والخوف منه – عز وجل – .

وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [سورة الرعد:٢١]. والمعنى : الذين يصلون الأرحام التى أمر الله بصلتها ، ويهابون ربهم إجلالا وتعظيما ، ويخافون الحساب السيء الذى يؤدى إلى دخول النار فهم لرهبتهم وخوفهم لله – سبحانه وتعالى – جادون فى طاعته ، محافظون على حدوده ،

تتجافى جنوبهم ، وتتنحى عن مضاجعهم خوفاً من عذابه ، وطمعاً فى رحمته . هؤلاء الذين يرهبون الله - سبحانه وتعالى - ويعملون حسابا للقائه حين يعقون فى عرصات القيامة للجزاء . فهم يرهبونه ويخافون يوماً عبوساً قمطريراً ، ولرهبتهم من هذا اليوم ولقاء الله - سبحانه وتعالى - يعملون بجد واجتهاد فى طاعته وعبادته لذلك يحميهم الله من شر ذلك اليوم ، ويلقون نضرةً وسروراً .

ويقول الله - عز وجل - فى المعنى ذاته : ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [سورة إبراهيم:١٤] . والمعنى : "ولأمنحنكم سُكْنى أرضهم بعد هلاكهم ، وذلك النصر للرسل ، وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي ، وخاف عذابي ووعيدي . يقول صاحب البحر المحيط : " ولما أقسموا بهم على إخراج الرسل والعودة في ملتهم ، أقسم تعالى على إهلاكهم . وأي إخراج أعظم من الإهلاك ، بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً ، وعلى إسكان الرسل ومن آمن بهم وذرياتهم أرض أُولئك المُقْسِمين على إخراج الرسل .

وفى نفس المعنى يقول الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة النحل:٥٠:٥١]. والمعنى : يخاف هؤلاء الملائكة التي في السماوات ، وما في الأرض من دابة، ربهم من فوقهم، أن يعذّبهم إن عَصَوا أمره ، ويفعلون ما يؤمرون ، يقول: ويفعلون ما أمرهم الله به ، فيؤدّون حقوقه ، ويجتنبون سُخْطه.

ومثل هذه الآية فى المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الرعد:١٥]. ومجمل القول : " إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته ، وكبريائه ، تدين له المخلوقات بأسرها ، جمادها ، ونباتها ، وحيوانها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة . ثم يقول - سبحانه وتعالى - لعباده : " لا تتخذوا لي شريكاً ، ولا تعبدوا سواى فإنكم

إذا عبدتم معي غيري جعلتموه لي شريكا ، ولا شريك لي إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقوني ، وخافوا عقابي ، بمعصيتكم إياى ، بإشراككم بى غيري، أو عبادتكم سواى . وإنما ذكر العدد فى قوله : " لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ " مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن المنهي عنه هى التثنية، وأنها منافية للإلوهية ، كما أن وصف الإله بالواحد فى قوله تعالى : " إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ " وذلك للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية ، وأنها من لوازم الإلوهية ، أما الإلوهية فغير منكرة ، ولا متنازع فيها . فالله – سبحانه وتعالى – أخبر أنه لا اله إلا هو، وأنه لا ينبغي الرهبة إلا منه ، ولا ينبغي العبادة إلا له وحده – سبحانه وتعالى – . هذا هو مقتضى الخشية من الله – سبحانه وتعالى – والرهبة منه ، لا من أحد سواه ، والذين يرهبون الله تعالى يجدهم حيث أمرهم ، ويفتقدهم حيث نهاهم ، وما ذاك إلا لأنهم يرهبونه ويخشون ولا يخشون أحد غيره ، ولا يعبدون سواه .

ويمضى القرآن الكريم فى الكلام عن الرهبة والخوف من الله – عز وجل – فيقول : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة مريم:٥٨]. والمعنى : هؤلاء النبيون ليسوا المذكورين فى الآية فحسب ، فالذي عنى به من ذرية " ءَادَمَ " هو" إدريس " ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع " نُوحٖ " هو" إِبۡرَٰهِيمَ " والذي عنى به من ذرية " إِبۡرَٰهِيمَ " هو"إسحاق ويعقوب وإسماعيل " ، والذي عنى به من ذرية " إسرائيل " هو" موسى ، وهارون ، وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم " .

قال ابن جرير: ولذلك فرّق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح – عليه السلام – في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح – عليه السلام – . قلت: هذا هوالأظهر أن إدريس – عليه السلام – في عمود نسب نوح – عليهما السلام – . وقد قيل: إنه من أنبياء بني إسرائيل ، أخْذاً من

حديث الإسراء ، حيث قال في سلامه على النبي – صلى الله عليه وسلم – : " مرحبا بالنبي الصالح ، والأخ الصالح " ، ولم يقل: " والولد الصالح "، كما قال آدم وإبراهيم – عليهما السلام – .

وعن عبد الله بن محمد : أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه ، فأمرهم أن يقولوا : " لا إله إلا الله "، ويعملوا ما شاءوا فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل .

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الأنعام:٨٣:٨٧]. إلى أن قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنعام:٩٠]. وقال تعالى: مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ " [سورة غافر:٧٨]. وفي صحيح البخاري، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفي " ص " سجدة ؟

قال : نعم، ثم تلا هذه الآية: " أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ " ، فنبيكم ممن أُمِر أن يقتدي بهم،

قال: وهو منهم، يعني داود .

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: " إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا " . أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانةً، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة .

"والبُكِيّ"": جمع بَاكٍ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداءً بهم، واتباعاً لمنوالهم . قال سفيان الثوري، قال: قرأ عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- سورة مريم ، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء. تلك هى الرهبة والخوف من الله المتمثلة فى السجود مع البكاء ولا يكون ذلك إلا من خاشع متبتل، وخائف منزعج من لقاء الله فى الآخرة ، ورهبة من المصير المحتوم وهو اللقاء مع الله – سبحانه وتعالى – فلذلك يخرون سُجْداً وَبُكيا . ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن " الرهبة " من الله – عز وجل - فيقول : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٢٨]. ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]. والمعنى : وهم من خشيته وخوفه ورهبته مشفقون على أنفسهم من لقاء ربهم ، وطمعاً فى ثوابه وخوفاً من عقابه . وقوله : " وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ " هى مثل قوله – سبحانه وتعالى- : " مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ " . وقوله تعالى : " وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ " . وآيات كثيرة فى القرآن الكريم وردت فى هذا المعنى وفى نفس السورة يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٤٩]. وهى مثل قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة ق:٣٣]. ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة المُلك:١٢]. وهم من يوم القيامة خائفون وَجِلُون حيث تنصب الموازين ، ويمد الصراط المستقيم ، فإما إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، وإما إلى نار تحرق الأجساد ، وتكوى الجباه وكما تكوى جنوبهم وظهورهم ، وكلما نضجت جلودهم بُدْلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، هذا مكمن رهبتهم وخوفهم

وخشيتهم وإشفاقهم من ربهم – سبحانه وتعالى – . وقوله – سبحانه وتعالى – :
﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠]. يعنى : يدعوننا رغباً فيما عندنا من النعيم المقيم ، والتلذذ بالحور العين ، وبجنة فيها ما لا عين رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ورهباً مما عندنا من العذاب ، ونار الجحيم والماء الذى يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . " وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ " . عن ابن عباس – رضى الله عنهما– قال : " يعنى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية : خائفين . وقال أبوسِنّان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب ، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً " خَٰشِعِينَ " . أي: متواضعين . وقال الحسن ، وقتادة ، والضحاك: "خَٰشِعِينَ " . أي: متذللين لله – عز وجل – . وكل هذه الأقوال متقاربة . وعن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا " أبو بكر " – رضي الله عنه – ثم قال: أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله، واثنوا عليه بما هوله أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله – عز وجل – أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال: " إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ " .

وحول هذا المعنى – الرهبة من الله – تتحدث هذه الآيات وهى قوله تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [سورة الحج: ١: ٣].
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ [سورة الحج:٣٤:٣٥]. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [سورة الحج:٥٤].

ففى الآية الأولى وهى مطلع السورة ، وهو مطلع عنيف مرهوب رعيب ، ومشهد من مشاهد القيامة ترتجف له القلوب . فيبدأ بالنداء العام الشامل الذى ينتظم الناس جَمْعاً على اختلاف أجناسهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم فيقول تعالى :"يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ " . يدعوهم إلى الخوف من الله : " ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ " ويخوفهم ذلك اليوم العصيب : " إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ " . وهكذا يبدأ بالتهويل المجمل ، وبالتجهيل الذي يلقي ظل الهول يقصر عن تعريفه التعبير ، فيقال : إنه زلزلة . وإن الزلزلة " شَىْءٌ عَظِيمٌ " ، من غير تحديد ولا تعريف . ثم يأخذ في التفصيل . فإذا هو أشد رهبة من التهويل .

إذا هو مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي . وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها . وبالناس سكارى وما هم بسكارى ، يعنى ليس السكر من شراب شربوه أو خمر احتسوه ، وإنما الذى طير ألباسهم ، وجعلهم مثل السكارى ما انتابهم من الهلع ، والخوف ، والفزع فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة ، بينما الخيال يمتلؤه . والهول الشاخص يُذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه. وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن يقاس بوقعه في النفوس الآدمية : في المرضعات الذاهلات عما أرضعن وما تذهل المرضعة عن طفلها وفي فمه ثديها إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي والحوامل الملقيات حملهن ، وبالناس سكارى وما هم بسكارى وقوله : " وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ " .

يقول " قتادة " – رضى الله عنه – : " فى هذا اليوم تذهل المرضعة عن رضيعها دون فطام ، وتضع الحامل ما فى بطنها لغير تمام ". وهذا الذى يحدث ليس من شراب شربوه فطير ألباسهم وذهب بعقولهم ، إنما هوهول وفزع ورهبة يوم القيامة وما يحدث فيه من زلازل وأهوال .

ويقول الله – عز وجل – : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الحج:٣٦]. وفى هذه الآية نرى الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجه بها كلها إلى الله – سبحانه وتعالى – ومن ثم يُعنى بتوجيه الشعور والعمل ، والنشاط والعبادة والحركة والعودة إلى تلك الوجهة الواحدة ، وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة . وعلى هذا الأساس حُرْمَّ من الذبائح ما أهِلَّ لغير الله به ، ومن الحُكم ذكر الله عليها فكأنها تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله تعالى .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [سورة الحج: ٣٤]. ويعقب بتقرير الوحدانية فى قوله – سبحانه وتعالى – : " فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ " . وبالأمر بالإسلام له وحده . " فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ " . وليس هوإسلام الإجبار والاضطرار ، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان : " وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ. ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ " . فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم . "وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ " . فهم يعبدون الله حق عبادته . " وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ " فهم لا يضنون على الله بما في أيديهم . وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر. فهي منبثقة

من العقيدة وقائمة عليها . والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها . والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات .

ثم يقول الله – سبحانه وتعالى - : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الحج:٥٤:٥٥]. والمعنى وليعلم أهل العلم أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من فى قلبه مرض . وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم . ومنقذهم عن الضلالة والغواية ، وتلك هى الرهبة من الله – عز وجل – وخشيته فإذا ما أتقى الله المؤمن أرشده الله إلى الطريق القويم ، وهداه إلى الصراط المستقيم .(١)

وما زال القرآن الكريم يرشدنا إلى الأخلاق الفاضلة ، والخلال الكريمة والخصال النبيلة تشدنا للفضيلة ، ومحاربة للرزيلة يقول – سبحانه وتعالى - : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١:٢]. يعنى هم خاشعون مخبتون لله أذلاء منقادون له ، خائفون من عذابه ، روى الحاكم أن النبى – صلى الله عليه وسلم - كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت هذه الآية رمى ببصره إلى نحومسجده ، والمراد موضع سجوده ، والخشوع واجب على المرء فى الصلاة ، وذلك للوجوه التالية : -

أولا : التدبر فيما يقرأ ، قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة محمد:٢٤] . والتدبر لا يكون بدون الوقوف على

1- تفسير الطبرى جـ ١٠ ، ص ٤٩ .

المعنى ، كما قال تعالى : " وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا " والوقوف على عجائب أسراره ، وبديع حكمته وأحكامه .

ثانيا : تذكر الله والرهبة من وعيده كما قال تعالى : " وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ "

ثالثا : إن المصلى يناجى ربه ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ومن ثم قالوا : " صلاة بلا خشوع ، جسد بلا روح " . وجمهور العلماء على أن الخشوع ليس شرطاً للخروج من عهدة التكليف ، وأداء الواجب . وإنما هو شرط لحصول الثواب عند الله ، وبلوغ رضوانه .

رابعا : الإعراض عن اللَّغو. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة المؤمنون:٣]. يعنى يعرضون عن كل ما لا يعنيهم ، وكل ساقط أن يلغى مثل الكذب والهزل والسب ، فهم فى صلاتهم معرضون عم كل شيء إلا عن خالقهم رغبة ورهبة .

ويقول الله تعالى أيضا : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة المؤمنون:٥٨]. والمعنى : إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته جادّون في طلب مرضاته ، فهم فى نهاية الخوف من سخطه عاجلاً ، ومن عذابه آجلاً ، ومن ثم يبتعدون عن الآثام والمعاصي . " وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ " . يقول: والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدقون . " وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ " يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم ، فلا يجعلون له فيها لغيره شريكاً لوثن ، ولا لصنم، ولا يُراءون بها أحداً من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه.

ويقول تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة المؤمنون:٦٠]. والمعنى : والذين يعطون ما أعطوا ، ويتصدقون بما تصدقوا ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم ، وألا يقع على الوجه المرضى حين يبعثون ،

ويرجعون إلى ربهم ، وتنكشف الحقائق ويحتاج العبد إلى عمل مقبول لديه ، وإن قل. قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [سورة الزلزلة:٧:٨]. ويدخل فى قوله تعالى : "يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا" كل حق يلزم إتاؤه ، سواء أكان من حقوق الله مثل " الزكاة ، والكفارة وغيرها " . أم حق من حقوق العباد مثل " الودائع ، والديون ، والعدل بين الناس " . فمتى فعلوا ذلك وقلوبهم وجلةً من التقصير، والإخلال بها بنقصان أو غيره اجتهدوا فى أن يُوفُوها حقها حين الأداء .

وسألت " عائشة " – رضى الله عنها – رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن قوله : " { وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ }.

فقالت: أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى؟

فقال عليه الصلاة والسلام : لا يا ابنة الصديق ، ولكن هو الرجل الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى " .

ومن الآيات القرآنية التى تحوى الأخلاق الفاضلة وترشد المسلمين إلى التوجه إليها ، والعمل بها وتجعل المسلم يرهب الله ويخشاه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾ [سورة النور:٥٢]. والمعنى : ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به ، وترك ما نهياه عنه ، ويخشى الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصي ويتقيه فى مستأنف أموره ، فأولئك الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضاه عنهم يوم القيامة والآمنون من عذابه .

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تدعوا إلى الرهبة ، والخوف من الله هذه الآية ، وهى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ ﴾ [سورة السجدة:١٦]. المعنى: أنهم يتنحون ، ويبتعدون عن مضاجعهم ، وينأون عن فراشهم فلا ينامون راعين

ربهم خوفاً من عذابه ، وطمعاً فى رحمته ، ومما رزقناهم من المال ينفقون فى وجوه البر والخير ، ويؤدون حقوقه ، التى أوجبها عليهم فيه ، يقول " أنس بن مالك " – رضى الله عنه – : " نزلت فينا معاشر الأنصار ، كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى – صلى الله عليه وسلم – .

وعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فى قوله تعالى "جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ " . قال : " هى قيام الرجل أول الليل . وروى الإمام أحمد عن أبن مسعود – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : " عجب ربُّنا من رجلين: رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته"، فيقول الله لملائكته : انظروا إلى عبدي ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبةً فيما عندي وشفقاً مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله فانهزم معه أصحابه ، فعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع ، فرجع فقاتل حتى أهرق دمه، فيقول الله لملائكته: " انظروا إلى عبدي رجع رغبةً فيما عندي وشفقاً مما عندي حتى أهرق دمه " .

وأخرج الحاكم وأبن جرير ، وابن مردويه عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال : " كنت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: " لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت". ثم قال : " ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل " . ثم قرأ: " تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ " ، حتى بلغ " يُنفِقُونَ " .

ثم قال: " ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ " فقلت: بلى، يا رسول الله.

فقال : " رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة، وذروة سَنامه الجهاد في سبيل الله ".

ثم قال : " ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ ".

فقلت: بلى ، يا نبي الله .

فأخذ بلسانه ثم قال: " كُفّ عليك هذا ".

فقلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به .

فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يَكُب الناس في النار على وجوههم – أو قال: على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم " .

وعن ابن عباس – رضى الله عنه – أنه قال فى معنى هذه الآية : " ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ " : وهم قوم لا يزالون يذكرون الله ، إما في صلاة ، وإما قياما ، وإما قعودا ، وإما إذا استيقظوا من منامهم، هم قوم لا يزالون يذكرون الله . وتتجافى لذكر الله ، كلما استيقظوا ذكروا الله ، إما في الصلاة ، وإما في قيام ، أو في قعود ، أو على جنوبهم ، فهم لا يزالون يذكرون الله.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم، شغلاً منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفاً وطمعاً، وذلك نَبْو جنوبهم عن المضاجع ليلا؛ لأن المعروف من وصف الواصف رجلا بأن جنبه نبا عن مضجعه، إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم في وقت منام الناس المعروف، وذلك الليل دون النهار، وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك، يدلّ على ذلك قول عبد الله . ويقول الحسن ومجاهد ومالك والأوزاعى وغيرهم : " إن المراد بالتجافي ، القيام لصلاة النوافل بالليل .

وفى مجال الرهبة من الله – سبحانه وتعالى – تقرأ هذه الآيات من سورة الأحزاب وهى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ

وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٣٥:٣٦]. قالت " أم سلمة " – رضى الله عنها – زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – قلت للنبى – صلى الله عليه وسلم – : " يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني ذات يوم ظهراً إلا نداؤه على المنبر وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هويقول على المنبر: يا أيها الناس إن الله يقول في كتابه : " إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... إلى قوله : " أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " .

والقنوت هو الطاعة . قال تعالى : " ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الزُّمَر:٩]. وقال تعالى : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ [سورة الروم:٢٦]. وقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [سورة آل عمران:٤٣] وقوله – سبحانه وتعالى – : " كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ " .

فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهى الإيمان ثم القنوت ناشئ عنهما : فالصدق صفة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة – رضى الله عنهم – لم تجر عليهم كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق ، ومن صدق نجا . عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى الجنة ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال

الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، وسجية الأثبات هى الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة . قال – صلى الله عليه وسلم- : " وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي : أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهوصدق السجية وثباتها.

" وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ " . الخشوع : السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والكامل عليه الخوف من الله ومراقبته ،قال – صلى الله عليه وسلم - " اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " . والمراد مراقبة العبد لربه ، وخوفه منه فمتى خلف ، وخشي العبد ربه – سبحانه وتعالى - ، وعلم أنه مطلع عليه فإن لم يكن يرى ربه فإن الله يراه ، وهذا هو مقام المراقبة فعندما يصل العبد إلى هذه المرتبة ، نال ثوابه ورضاه وأمن عذابه ، وناره .

" وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ " . الصدقة : هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء ، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، وإحسانا إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين قال – صلى الله عليه وسلم- :"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" فذكر منهم : " ورجل تصدق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " .

ومن معاني الرهبة فى القرآن الكريم ما نجده فى قوله – سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٣٧]. والمعنى : واذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام وأنعمت عليه بالتحرير والعتق من العبودية والإعتاق . يقول بعض المفسرون : " هو" زيد بن حارسة " . كان من سبى الجاهلية ، اشترته السيدة الفضلى " خديجة " ووهبته

لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبناه ، وزوجه ابنة عمه " زينب بنت جحش " – رضى الله عنها – فأمره القرآن أن يمسك زوجه ولا يطلقها ، أن يتقى الله فى أمرها ، ثم يقول القرآن ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعنى : وتضمر يا محمد – صلى الله عليك وسلم – فى نفسك ما سيظهره الله وهوإرادة الزواج بها . يقول صاحب التسهيل : " الذي أخفاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمر جائز مباح لا إثم فيه ، ولا عتب ولكنه خاف أن يسلط الله عليهم ألسنتهم وينالوا منه فأخفاه حياء وحشمةً وصيانةً لعرضه . وذلك أنه روي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان حريصاً على أن يطلق " زيد " " زينب" ليتزوجها هو- صلى الله عليه وسلم – لقرابتها منه ولحسبها فقال : أمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص عليها خوفاً من كلام الناس لئلا يقولوا تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه وقد كان التبني عادة فى الجاهلية ، وكان المُتَبَنْى يرث المُتَبَنَى ، و المُتَبَنَى يرث المُتَبَنْى فأراد الله أن يهدم هذه القاعدة وذلك بزواج سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – من " زينب بنت جحش " .

ونسب "زيد" إلى أبيه فقيل " زيد بن حارثة " بدلا من " زيد بن محمد " . يقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:٥] . فالذي أخفاه – صلى الله عليه وسلم – هو إرادة تزوجها فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزويجها . لإبطال حكم التبني ، فقال الله له تهاب الناس وتخشاهم أن يقولوا تزوج " محمد " حليلة ابنه والله أحق أن تخشاه وحده ، أن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها " زيد بن حارثة " .

يقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما – : " خشي أن يقول المنافقون تزوج " محمد " – صلى الله عليه وسلم – حليلة ابنه فلما قضى " زيد " حاجته من

نكاحها وطلقها زوجناها إياك " يا محمد " . وهذا نص صريح قاطع على أن الذى أخفاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم - هو إرادة الزواج بها بعد تطليقها من "زيد " تنفيذاً لأمر الوحي ليس كما زعم الأفاكون فقد جعلناها زوجةً لك ، يقول المفسرون : " إن الذى تولى تزويجها هو الله – سبحانه وتعالى - ، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - بلا إذن ، ولا عقد ، ولا مهر ، ولا شهود ، كان ذلك خصوصية للرسول – صلى الله عليه وسلم - .

روى البخاري عن أنس بن مالك – رضى الله عنه –قال : " رضي الله تعالى عنها كانت تفخر على أزواج النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - تقول : "زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات " . وأخرج ابن جرير عن الشعبي قال : كانت تقول للنبي - عليه الصلاة والسلام - إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهن إن جَدّي وَجَدَّكَ واحد ، وإني أنكحك الله إياي من السماء ، وإن السفير لجبريل - عليه السلام - ولعلها أرادت سفارته - عليه السلام - بين الله تعالى وبين رسوله وإلا فالسفير بينه - عليه الصلاة والسلام - وبينها كان زيداً .

والحكمة من هذا الزواج بينها الله تعالى فى قوله : " **زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا** " والمعنى : لئلا يكون فى تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة ، وتآثم فى حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني ، إذا لم يبق لأزواجهن حاجةً فيهن . يقول ابن الجوزى : " والمعنى : زوجناك " زينب " وهى امرأة " زيد " الذى تبنيه " لكى لا يظن إن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها ، لقوله " **وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا** " أي : وكان أمر الله لك ، ووحيه إليك بتزوج " زينب " مقدراً ، محتوماً ، كائناً لا محالة . ولما نُفِـيّ

الحرج عن المؤمنين ، نفى الحرج عن سيد المرسلين – صلى الله عليه وسلم – على سبيل التكريم والتشريف .(١)

وفى معنى الرهبة يقول – سبحانه وتعالى – أيضا : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[سورة الأحزاب:٣٩]. والمعنى : هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد ، وجعلت لك قدوة بهم هم الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه ، ويخافون الله وحده ، ولا يخافون أحد سواه فاقتديهم يا محمد ، ويكفى أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال ، فينبغي إلا ترهب غيره ، ولا تخشى سواه ... " وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا " .

وعن الرهبة من الله – عز وجل – وخشيته والخوف منه تحدثنا هذه الآيات من سورة " فاطر " فيقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة فاطر:١٨]. والمعنى : " وحقيقة فردية التبعية والجزاء ذات أثر حاسم فى الشعور الاخلاقى ، وفى السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزى بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوى فى يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب مع التخلي عن كل أمر خادع فى أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . كما أنه فى الوقت ذاته عامل مطمئن فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة الجماعة فيطيش وييأس من جدوى عمله الفردي الطيب . ما دام قد أدى واجبه فى النصح للجماعة ومحاولة ردها عن الضلال بما يملك من وسيلة .

إن الله لا يحاسب الناس جملةً إنما يحاسبهم فرداً فرداً كل على عمله وفى حدود واجبه إنه مشهد القافلة كُل فيها يحمل أثقاله ، ويمضى فى طريقه حتى

1- تفسير المراغى جـ ٦ ، ص ٥ ، ٣٢ ، ٣٤ .

يقف أمام الميزان والوزن . " قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ " . فهؤلاء هم الذين يفلح فيهم الإنذار. هؤلاء الذين يرهبون ربهم ويخشونه ، ولم يشاهدوه . ويقيمون الصلاة ليتصلوا بربهم ويعبدوه . فلا عليك ممن لا يخشى الله،ولا يقيم الصلاة . " وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ " فهو لا يتزكى لك ولا لغيرك والتزكية هى طهارة النفس ، وصفاؤها قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الشمس:٩]. " وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ " والمرجع وهو المحاسب والمجازى فلا يذهب عمل صالح ، ولا يفلت عمل سيء ، ولا يوكل الحكم والجزاء إلى غيره ممن يميلون أوينسون أويهملون .

وفى معنى الرهبة والخشية من الله يقول الله تعالى أيضا : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة فاطر:٢٨]. والمعنى : يقول الإمام الشهيد سيد قطب : " وهذه الجولة قراءات في كتاب الكون وفي الكتاب المنزل . قراءات في كتاب الكون في صحائفه المعجبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس . الثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة . . هذه اللَّفتة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة في كتاب الكون المفتوح . . وقراءات في الكتاب المنزل وما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة . وتوريث هذا الكتاب للأمة المسلمة . ودرجات الوارثين . وما ينتظرهم جميعاً من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين؛ ومشهدهم في دار النعيم . ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم . وتختم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور . .

ويقول ابن كثير : " إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ " . أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى -كلما كانت المعرفة به أتمّ

والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر. وعن ابن عباس في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ } قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير. وهو تفسير قوله تعالى : " إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ " . إن الله غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأناب من عباده " إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " .

ويقول الله – عز وجل- فى معنى الرهبة من سورة "يس": ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة يس:١١]. والمعنى : إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن ، واتبع ما فيه الأحكام ، وخشي عقاب الله قبل حلوله ، ومعاقبه وأهواله ، فإنه – سبحانه وتعالى – عظيم الرحمة أليم العذاب مثل ما قال – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة الحِجر:٤٩:٥٠] فبشر هذا الذى اتبع أحكام الدين ، وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلات ، وأجر كريم ، ونعيم مقيم لا يستطاع وصفه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة المُلك:١٢].

هذه هى الرهبة من الله – عز وجل – ، ونرى القرآن الكريم يؤكد الخشية من الله وذلك بقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة يس:١٢]. وفى التفسير القرآني للقرآن : إنما ينفع النذر، والعظات ، من استمع إلى آيات الله فاتبعها ، وآمن بها ، وخاف ربه ، وعمل ليوم القيامة ، مصدقاً بما وعد به وإن لم يره، وعلى هذا فليوجه النبى – صلى الله عليه وسلم – وجهه كله إلى المؤمنين وليعطيهم جهده كله ففى هذا الميدان يثمر عمله ، ويقع موقعه من أهله . وفى قصر الإنذار على من أتبع الذِكُرّ وخشي الرحمن بالغيب فى هذا إشارة إلى الاستعداد

الفطري للإيمان عند هؤلاء المنذرين ، وأنهم بفطرتهم السليمة كانوا والإيمان الذى يدعون إليه على موعد ، بل إنهم فى انتظار له وشوق إليه ، قبل أن يطلع عليهم . وفى جعل الخشية للرحمن إشارة إلى أنها خشية إجلال وتعظيم ، خشية حب وتوقير إنها خشية الرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء .

وقوله تعالى : " فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ " . هوما يلقى به النبى – صلى الله عليه وسلم – هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا له بمجرد أن دعاهم إلى الله. ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – فى تفسير هذه الآية إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر، وهو القرآن العظيم، "وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ " . أي: حيث لا يراه أحد إلا الله، يعلم أن الله مطلع عليه، وعالم بما يفعله، " فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ " أي: لذنوبه، " وَأَجْرٍ كَرِيمٍ " . أي: كبير واسع حسن جميل، كما قال: " إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ " .

ثم قال تعالى: " إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ " . أي: يوم القيامة، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب مَنْ يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الحديد:١٧] .

ومجمل القول : أن النذر تنفع وتفيد المؤمنين الذين يصدقون بالقرآن ويخشون ربهم بالغيب ، والإيمان بالغيب من أولى صفات المتقين . يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة:٥] ومن معاني الرهبة من الله وخشيته تتحدث هذه الآيات من سورة الزمر فيقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الزُّمَر:١٦]. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا

مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ [سورة الزُّمَـر:٢٣]. هذا الذى يلقاه أهل الضلال فى الآخرة تغشاهم النار، وتشتمل عليهم من فوقهم، ومن تحتهم.

كما يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ [سورة الأعراف:٤١]. والظلّل جمع " ظِلّة " وهى ما يستظل به، وفى التعبير عن النار " بالظلل " مع أن " الظلل " يتقى بها وهج الشمس، إشارةً إلى أن النار المسلطة على أهل النار لا تتقى هناك إلا بنار من النار. إذا استصرخ أهلها، كان الصريخ لهم بعضاً منها وقطعاً من شواظها، وفى هذا بلاء إلى بلاء، وعذاب إلى عذاب حيث تتضاعف البلوى بهذا الطارق الجديد، الذى كان موضع أمل ورجاء، وفى هذا يقول المتنبي :

إذا استشفيت من داء بداء ... فأقتل ما أعلك ما شفاكا

والظلل التى من تحت أهل النار هى نار، يمشون على شواظها، فلا ينتقلون إلا من نار إلى نار، فحيثما وضعوا أرجلهم كانت النار تحتها، فلا ظل يمشون إلا هذه النار الجامحة التى يضعون أقدامهم عليها " ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ " . يعنى : هذا العرض لأهوال جهنم وما يلقى، فسها أهلها من العذاب الأليم، هو تحذير من الله لعباده، وتخويف لهم من هذا المورد الوبيل، وهم فى هذه الدنيا ليأخذوا لذلك حذرهم وليعملوا على توقيه، وذلك يكون " بالإيمان بالله " و" اتقاء محارمه " . ولهذا جاء قوله تعالى يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ. تعقيباً على هذا التحذير، وإلفاتاً إلى طريق السلامة والنجاة من هذا البلاء الراصد، وذلك بتقوى الله فالتقوى هى مركب النجاة من هذا الطوفان الجهنمي الذى يحتوى بأمواجه المتلاطمة كل من لم يكن فى هذا المركب !!.

وفى قوله تعالى " يَعِبَادِ " . نداء من رب كريم إلى عباده ، ليأخذوا طريقهم إليه – سبحانه وتعالى - ، حيث الأمن والسلامة والنعيم والرضوان . و" الفاء " فى قوله – سبحانه وتعالى -" فَٱتَّقُونِ " هى " فاء الفصيح والتفريع وهى تفصح عن كلام محذوف أي قد بينت لكم ما ينتظر الذين لا يمنون بى ، ولا يتقون محارمي من بلاءٍ شديد ، وعذابٍ أليم ، فاتقون أنتم حتى لا تقعوا تحت طائلة نقمي وعذابي.

وفى نفس المعنى من الرهبة من الله – سبحانه وتعالى - قول الحق تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ (٢٣)﴾ [سورة الزُّمَر:٢٣] . والمعنى: إن الله أنزل أحسن الحديث " قرآنا كريما " يشبه بعضه بعضا فى الصدق، والبيان ، والوعظ ، والحكمة ، وكما تتشابه أجزاء الماء والهواء ، وأجزاء النبات والزهر ، تثنى وتردد قصصه ، وأنباؤه ، وأوامره ، ونواهيه ، ووعده ، ووعيده . إذا تليت منه آيات العذاب اقشعرت الجلود ووجلت القلوب ، وإذا تُلِيَت آيات الرحمة ، والوعد ، لاَنتْ الجلود ، وسكنت القلوب ، وأطمئنت النفوس .

يقول الزجاج : " إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله . وذلك الكتاب يهدى به الله من يشاء ، ويوفقه للإيمان ، ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن ، والتصديق به ، فما له من مخرج من الضلالة ولا موفق لسلوك طريق الحق " .

وفى معنى الرهبة من الله يقول الله تعالى : ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن:٤٦]. والمعنى : وللعبد الذى يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب . "جَنَّتَانِ" جنة لسكنه ، وجنة لأزواجه وخدمه ، كما هى حال " الملوك " فى الحياة الدنيا حيث يكون له قصر ولأزواجه قصرآخر. يقول القرطبى – رحمه الله تعالى :

" إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور، بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل نزلت في أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - خاصةً حين ذكر ذات يوم الجنة حين أُزلفت والنار حين برزت ، وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبناً على ظمأ فأعجبه فسأل عنه فأخبر أنه من غير حِل فاستقاءه ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر إليه فقال رحمك الله لقد أنزلت فيك آيةً وتلا عليه هذه الآية .

ويقول الزمخشرى : " جنةً لعقيدته وجنةً لعمله ، أو جنةً لفعل الطاعات وجنةً لترك المعاصي ، أو جنةً يثاب بها وأخرى يتفضل بها عليه ، أو إحداهما روحانية والأخرى جسمانية ، ولا يخفى أن الصفات الآتية ظاهرةً في الجسمانية . وفى الحديث : " جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن " . ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – لقوله تعالى- :" وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ " ، فقلت: وإن زنى أو سرق؟

فقال: وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ،

فقلت: وإن زنى وإن سرق؟

فقال : " وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ " . فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ .

فقال : " وإن رغم أنف أبي الدرداء ".(١)

وهذه الآية عامةً في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن:٤٦:٤٧].

ويقول الفخر الرازي : " لما قال تعالى في حق المجرم إنه يطوف بين نار وبين حميم آن ، وهما نوعان ذكر لغيره وهو الخائف جنتين في مقابلة ما ذكر في حق المجرم ، لكنه ذكر هناك أنهم يطوفون فيفارقون عذاباً ويقعون في الآخر ، ولم يقل :

1- رواه النسائي

ها هنا يطوفون بين الجنتين بل جعلهم الله تعالى ملوكاً وهم فيها يطاف عليهم ولا يطاف بهم احتراماً لهم وإكراماً في حقهم ، وقد ذكرنا في قوله تعالى : " مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ " . وقوله : " إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ " . أنه تعالى ذكر الجنة والجنات ، فهي لاتصال أشجارها ومساكنها وعدم وقوع الفاصل بينهما كمهامه وقفار صارت كجنة واحدة ، ولسعتها وتنوع أشجارها وكثرة مساكنها كأنها جنات، ولاشتمالها على ما تتلذذ به الروح والجسم كأنها جنتان ، فالكل عائد إلى صفة مدح .(١)

وفى معنى الرهبة من الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد:١٦]. والمعنى : أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله ؟ ، ولما نزلت من آيات القرآن المبين ؟ ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله " التوراة " والإنجيل فطال عليهم الزمن الذى بينهم وبين أنبيائهم حتى صلبت قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوةً ، يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – : " مالوا إلى الدنيا، وأعرضوا عن مواعظ القرآن " . ويقول ابن حبان : " صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة " . والغرض هو أن الله – سبحانه وتعالى – يحذر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حيث قَسَتْ قلوبهم لما طال عليهم الزمان وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله ، رافضون لتعاليم دينهم ، من فرط قسوة قلوبهم . يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : " نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمناً قليلا ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم

1- تفسير المراغى جـ ٨ ، ص ١٤٧ ، ١٦١ .

ورهبانهم أرباباً من دون اللّه، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظةً، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد (١).

ومن معاني الرهبة من اللّه فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحشر:٢١] . والمعنى لوخلقنا فى الجبل عقلاً وتمييزاً كما خلقنا للإنسان ، وأنزلنا عليه القرآن بوعده ووعيده ، لخشع وخضع وتشقق خوفاً من اللّه تعالى ، ومهابةً له . وهذا تصوير لعظمة قدر القرآن ، وقوة تأثيره وأنه بحيث لو خوطب به الجبل على شدته وصلابته . لرأيته ذليلاً متصدعاً من خشية اللّه . والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يخشع عند تلاوة القرآن ، ودناءة حال الإنسان . ويقول صاحب " البحر المحيط " : " والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لخشع وتصدع . وإذا كان الجبل على عِظمِهِ وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر. وتلك الأمثال نُفَصِّلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون فى آثار قدرة اللّه ووحدانيته فيؤمنون . (٢)

ويمضى القرآن الكريم فى الكلام على الرهبة من اللّه – سبحانه وتعالى – فيقول : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة المُلك:١٢]. والمعنى : " إن الذين يخافون مقام ربهم فيما بينهم وبينه إذا كانوا غائبين عن أعين الناس ، فيكفون أنفسهم عن المعاصي ، ويقومون بطاعته حيث لا يراهم إلا هو، مراقبين له فى السر والعلن ، واضعين نصب أعينهم ما جاء فى الحديث :" أعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك " . يكفر عنهم ما ألموا به من الذنوب والآثام،

١- التفسير القرآنى لعبد الكريم الخطيب . ط . دار الفكر جـ ٦ ، ص ٩١٠ ، وما بعدها .
2- حاشية الشيخ زادة على البيضاوي جـ ٣ ، ص ٤٧٩.

ويجزيهم جزيل الثواب ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كفاء ما أسلفوا فى الأيام الخالية .

وقد ورد فى الحديث : " عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النبي – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِى ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِى عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِى الْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِى اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » . وذكر منهم رجل قال انى أخاف الله ، هذه هى الرهبة من الله والخوف منه وخشيته حتى يفوز برضاه ، وينعم فى مثواه ، ويفوز بالجنة فى أُخراه .(١)

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – فى نفس المعنى وهو الرهبة من الله : ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النازعات:١٨:٢٠]. والمعنى : فقل له يا " موسى " – عليك السلام – : هل ترغب فى أن تطهر نفسك من الآثام التى أنغمست فيها ، وتعمل بما أدلك عليه من طرق الخير ، وتبعد عما أنت فيه من اجتراح السيئات ، وارتكاب المناكر ، واقتراف الآثام، وتخشى عاقبة مخالفة ربك – سبحانه وتعالى – ، حتى تأمن من عاقبة ، إذا أديت ما ألزمك به من فرائضه ، واجتنبت ما نهاك عنه من معاصيه . ثم ذكر أنه لم يخضع للدليل والبرهان ، ولم يقنع بما أدلى إليه " موسى " – عليه السلام – من حجة فاضطر إلى أن يظهر له دليلاً يراه ويشاهده فقال تعالى : " ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ " . لما لم يقنع بما أدلى إليه موسى من حجة ودليل أظهر له آية يراها بعينيه، وهو" انقلاب العِصَاة " . ومع ذلك كذب الداعي ، وعصى سلطان البرهان ، وأظهر تمرده عليه . يقول تعالى : ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النازعات:٢١:٢٤] وذلك لأنه لم يرهب الله

1- تفسير المراغى جـ ١٠ ، ص ١٣ – ١٤ .

– سبحانه وتعالى – . ولو أنه كان يرهبه ما عصاه ، وما خالفه خاصة بعد الدليل الذى ساقه إليه ، ورآه بعينه ، وهوانقلاب العصاحية فهذا يعد دليل للإقناع ، وحجة للرد ، وبرهان للتوضيح والبيان ليرجع عن غيِّهِ ، ويثيب إلى رشده ، ويقلع عن ضلاله ؟ (١) .

ويستمر القرآن الكريم فى الكلام عن الرهبة من الله والخوف منه وخشيته فيقول – سبحانه وتعالى – : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النازعات:٤٠:٤١]. والمعنى : وأما من خاف عظمة ربه وجلاله ، وخاف مقامه بين يدي ربه يوم الحساب ، لعلمه ويقينه بالمبدأ والميعاد وزجر نفسه عن المعاصي والمحارم ، وكفها عن الشهوات ، والجري وراء اللَّذات وارتكاب المناكر، واقتراف الآثام ، واجتراح السيئات التى تؤدى بالنفس إلى الجحيم ودخول النار وعقاب الله له فى الدار الآخرة فإن جزاؤه الجنة لأنه كبح جماح نفسه ونهاها عن الهوى فجزاؤه حينئذ " فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ" . فهنيئاً له ولأمثاله من المؤمنين الذين يخشون ربهم بالغيب ويرهبونه فى السر والعلن . وهذه الآيات الكريمة هى " الميزان الدقيق " لمعرفة الإنسان نفسه هل هومن أهل الجنة أم من أهل النار ؟ . وهل هو من الشهداء أم من الأشقياء ؟ . فمن طغى وبغى ، وآثر شهوات الحياة على طاعة ربه ومولاه ، فهو الشقي المعذب بالجحيم ، ومن أطاع الله واتقاه ، وسارع إلى مَرّضاةِ ربه فى عُلاَه ، ونهى النفس عما تحبه وتهواه ، فهو السعيد فى دنياه والفائز فى أخراه ، فيجب على الإنسان أن يضع نفسه فى الميزان .

وَيُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا وَيُرْوَى

1 - تفسير المراغى ، جـ ١٠ ، ص ٢٨ – ٢٩ .

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيّاً حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ كَمَا يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ .

وفى المعنى نفسه وهو الخِشْيّةَ والرهبة من الله – عز وجل - يقول – سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾ [سورة عبس:٨:٩]. والمعنى : وأما من جاءك يسعى مسرعاً فى طلب الهداية والقرب من ربه ، وهو يخشاه ، ويحذر الوقوع فى الغواية فأنت عنه تلهى ، وتتغافل عن إجابته لمطلبه . وهو عتاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – فى سيدنا " عبد الله بن أم مكتوم " – رضي الله عنه - وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد نزول هذه الآيات يكرم " ابن أم مكتوم " ويقبل عليه ويتفقده ويقول له إذا رآه : " أهلا بمن عاتبني فيه ربى " . ويسأله : هل لك حاجةً ؟ . وهذا تكريم لسيدنا " عبد الله بن أم مكتوم " – رضي الله عنه - من الله – سبحانه وتعالى - ، وأيضا تكريم له من رسول الله – صلى الله عليه وسلم - . وعبد الله بن أم مكتوم من جملة الصحابة الذين أنزل الله فيهم قرآنا .

وفى الرهبة من الله أيضا يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأعلى:١٠]. والمعنى : سينتفع بهذه الذكرى وتلك الموعظة من يخاف الله – سبحانه وتعالى - . ويقول المراغى فى تفسيره : " إنما ينتفع بتذكيرك من يخاف الله ، ويخاف عقابه ، لأنه هوالذى يتأمل فى كل ما تذكره له ، فيتبين له وجه الصواب ، ويظهر له سبيل الحق الذى يجب التعول عليه . وفى التعبير "سيذكر" إيماء إلى أن ما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – بلغ حداً من الوضوح لا يحتاج معه إلا إلى التذكير فحسب ، وإنما الذى يَحُول بينهم وبين إتباعه، واقتفاء آثاره هو تقليد الآباء والأجداد فكأنهم عرفوه ، واستيقنوا صحته ، ثم زالت هذه المعرفة بانتهاجهم خطة آبائهم من قبل . (١)

1- البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٤٥٩ .

ومن معاني الرهبة ما نجده فى هذه الآية وهى قوله – سبحانه وتعالى – :
﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [سورة البيِّنة:٨]. والمعنى إن ثوابهم عند ربهم فى الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ، وهذا الثواب هو: جنات تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبدا ، لا يموتون ولا يخرجون منها وهم فى نعيم دائم لا ينقطع . " رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ". بما قدموا فى الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات وذلك الجزاء ، والثواب الحسن لمن خاف اللّٰه واتقاه ، وانتهى عن المعصية .

ويقول المراغى فى تفسيره : " هؤلاء يجازيهم ربهم بجنات يقيمون فيها أبدا، وفيها من اللذائذ ما هوأكل وأوفر من لذات الدنيا وعلينا أن نؤمن بالجنة ولا نبحث عن حقيقتها ، ولا أين موضعها ولا كيف نتمتع فيها ، فإن علم ذلك عند ربنا لا يعلمه إلا هو، فهو من علم الغيب الذى استأثر اللّٰه بعلمه ، ثم ذكر أسباب الجزاء فقال رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ " يعنى : " إنهم حازوا رضا اللّٰه بالتزام حدود شريعته ، محمودا مغبة أعمالهم ، ونالوا ما يرضيهم فى دنياهم وآخرتهم ، وهذا الجزاء الحسن إنما يكن لمن ملأت قلبه الرهبة والخشية ، والخوف من ربه – سبحانه وتعالى – .

وفى ذلك تحذير من خشية غير اللّٰه ، وتنفير من إشراك غيره به فى جميع الأعمال ، كما أن فيه ترغيباً فى تذكر اللّٰه ورهبته لدى كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل له خالصاً إلى أن فيه إيماء إلى أن أداء بعض العبادات مثل " الصلاة"، والصوم بحركات وسكنات مجردين عن الخشية لا يكفى فى نيل ما أُعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الجزاء ، لأن الخشية لم تصل قلوبهم ، ولم تهذب

نفوسهم . نسأل اللّٰه أن يطهر قلوبنا ، وينير بصائرنا حتى لا يذهب سواه ، ولا يخشى إلا إياه . والحمد للّٰه رب العالمين . (١)

ومن الأخلاق القرآنية " معاداة الشيطان " فيبين القرآن الكريم عداوة الشيطان للإنسان وأنه يضله ويهديه إلى عذاب القبر، وذلك بتذليل طرائق الغواية، وتيسير سبل الشر والفساد فى الأرض بغير الحق ويصدهم عن سبيل اللّٰه ، والطريق المستقيم فيقول اللّٰه سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة فاطر:٦]. فبعد أن بين اللّٰه – سبحانه وتعالى – سورة فاطر الأصل الأول وهو" التوحيد " عُنِيّ بذكر الأصل الثاني وهو الرسالة وسئل رسوله – عليه الصلاة والسلام – على تكذيب قومه له ، وذلك ببيان أنه لم يكن بدعاً من الرُسُل فى هذا التكذيب فقد كذب رسل من قبله فعليه أن يتأسى بهم ، ويصبر على أذاهم ، ثم يذكر الأصل الثالث وهو " البعث " والنشور مع بيان أنه حق لا ريب فيه ، وأنه لا ينبغي أبداً قبول وساوس الشيطان ، فإنه عدو لبنى آدم ، ولا يرشدهم إلا إلى اقتراف الذنوب ، وارتكاب المعاصي ، واجتراح السيئات التى تؤدى بهم إلى عذاب النار، وحرمانهم من الفوز برضوان اللّٰه تعالى وبئس المصير. فإن الشيطان قد غالبهم بعداوته ، وذلك بوساوسه ، وتزيين القبح لهم حُسَناً . " أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا " . فمطلوب منهم معاداته ، ومخالفته فيما يدعوه لهم من القبح والمناكر، ودعوته لهم إلى الغواية والظلال .

فغرضه من هذا إيقاعهم فى الشهوات ، وإغراقهم فى الملذات وإضلالهم وإلقاؤهم فى العذاب الدائم من حيث لا يشعرون . فهم أى " الشياطين " عدو لدود ، وعداوته قديمة ، فعادوه كما يعاديكم ومعاداته إنما تكون بمخالفته فيما يأمرهم به من مناكر فلا تطيعوه ، وكونوا على حذر منه .

1- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ٥٨٨ – ٥٨٩

◘ تفسير المراغى جـ ١٠ ، ص ٢١٦ – ١٢٧

يقول بعض العارفين بالله – سبحانه وتعالى – : " عجباً لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللّعين بعد معرفته بعداوته " . إنما غرضه أن يقذف بأتباعه فى نار جهنم المستعرة التى تشوى الوجوه . ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:٢٩]. فإنها تشوى الوجوه والجلود . لا هدف للشيطان إلا هذا . فهل يليق بمسلم عاقل أن يستجيب لنداء الشيطان ، وبغضب ربه الرحمن ؟ !! .

يقول القرطبي : " إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين فى نار جهنم التى توقد على أهلها " . ويقول " الزمخشرى " : " إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً بطاعة الله ولا تطيعوه ، إنما يدعوا أتباعه فى الكفر ليكونوا فى النار الشديد . فاتخذوه عدوا فى عقائدكم ، وأفعالكم ، وكونوا على حذر منه فى جميع أحوالكم ، وكونوا متعدين لعداوته عن صميم قلب ، وإذا فعلتم فعلا فتفطنوا له فأنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ، ويزين لكم القبائح .

ويقول الإمام القشيرى : " والشيطانُ لا يفتر في عداوتك ، فلا تَغْفَلْ أنت عن مولاك لحظةً فيبرز لك عدوُّك؛ فإنه أبداً متمكِّنٌ لك . { إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ } وحِزْبه هم المُعرِضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، والغافلون عن الله . ودليلُ هذا الخطاب : إن الشيطانَ عدوُّكم فأبغضوه واتخذوه عدواً ، وأنا وَلِيُّكم . وحبيبُكم فأَحِبُّوني وارْضَوْا بي حبيباً .

وفى سورة " يس " : يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة يس:٦٠:٦١]. والمعنى : ألم آمركم يا بني آدم على ألسن رسلي أنكم لا تطيعوا الشيطان لأنه عدولكم بَيّنَ العداوة ووضح الكراهية ، ووحدوني وأطيعوني والعلة فى تقديم " النهى " على " الأمر " لأن حق التخلية هو

التقديم على تحلية . كما فى كلمة " التوحيد " وليتصل به قوله : " هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ". فإنه إشارة إلى عبادته التى هى عبارة عن " التوحيد والإسلام " . وقوله تعالى : " إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" . تعليل لوجوب الانتهاء . ويكرر الوصية فى هذه الآية قائلاً للناس أجمعين : ألم أوصيكم بالأدلة الحاسمة وبما منحت من العقول الفاهمة ، وبعثت من الرسل - عليهم السلام – وأنزلت من الكتب بياناً للطريق الذى يأخذ بأيديكم إلى النجاة وذلك بترك الطاعة للشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفةً أُخرى ، ولقد كان لكم فيمن سبقكم العبرة والعظة لو كنتم تعتبرون وتتعظون .

وفى سورة " الزخرف " يقول المولى– سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٢]. يقول العلامة "ابن كثير" – رضي الله عنه - : " ولا يصدنكم الشيطان عن إتباع الحق إنه لكم عدو مبين" والمراد : أن عداوته ظاهرةً وواضحةً كوضوح الشمس فى رابعة النهار. فالمراد أنتم لا تغتروا بوساوس الشيطان ، واحذروا أن يصدكم عن إتباع الحق ، فإنه لكم عدو مبين ظاهر العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور. فمن الأخلاق القرآنية أن يحذر المسلم الشيطان ووساوسه حتى لا يغرر به ، ويجعله من أصحاب النار وليعاذ بالله تعالى من شر النار، وسوء المنقلب ، فعلى المسلم التحلي بأخلاق القرآن الكريم وسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – فيحذر الشيطان ووساوسه فى كل أمر من أموره وفى كل عمل من أعماله فى هذه الحياة التى تعج بالفتن والمآرب [١] .

1- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ١٦٣ .

الإخلاص

إن البواعث التى تسوق المرء إلى العمل ، وتدفعه إلى إجادته وَتُغْرِيه بتحمل التعب فيه ، أو بذل الكثير من أجله ، كثرة كاثرة ومنها ، القربى الذى يكاد يرى مع العمل ، ومنها الغامض الذى يختفي فى أعماق النفس . والغرائز البشرية المعروفة ، وهى قواعد السلوك العام . والإسلام يراقب بعنايةٍ فائقة ما يقارن أعمال النفس من نيات ، وما يلابسها من عواطف ولكن الإسلام لا يهتم إلا بالإخلاص فى كل هذه الأعمال وتلك النيات ، فلا يعتد الإسلام بالعمل إلا إذا كان خالصاً لوجهه، وله وحده .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – فى هذا المعنى : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الإنسان:٩]. والمعنى : نحن لا نمن عليكم ، ولا نتوقع منكم جزاء ولا مكافأة ، ولا غيرها مما ينقص الأجر ، وقد كانت السيدة الفضلى " عائشة بنت أبى بكر " – رضي الله عنها – تبعث الصدقة إلى أهل بيت من البيوت ثم تسأل المبعوث بالصدقة فإن ذكر دعاء دعت عليه ، وذلك ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله ، ثم يؤكد القرآن هذا المعنى ويوضحه بقوله تعالى : " لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا " . يعنى لا نطلب منكم مجازاة تكافؤُننا بها ، ولا أن تشكرونا لدى الناس . يقول " مجاهد وسعيد بن جبير " – رضي الله عنهما : " : "أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب في ذلك راغب. وذلك كله مداره الإخلاص خوف يوم القيامة ، ولذلك أشار القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [سورة الإنسان:١٠]أي: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير. وعن ابن عباس :{ عَبُوسًا } ضيقا، { قَمْطَرِيرًا } طويلاً . وقال عكرمة وغيره، عنه، في قوله: {يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا } أي: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل

القَطرَان. وقال مجاهد: { عَبُوسًا } العابس الشفتين، { قَمْطَرِيرًا } قال: تقبيض الوَجه بالبُسُور. وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، { قَمْطَرِيرًا } تقليص الجبين وما بين العينين، من الهول.

وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الليل: ٢١]. والمعنى : إن الأتقى هو الذى ينفق أمواله فى وجوه البِرّ طالباً بذلك طهارة نفسه ، وقربها من ربه لا مريداً بذلك رياءً ولا سمعه ، ولا طالباً مدح الناس له فإن ذلك لون من ألوان النفاق الذى يبطل العمل ، ويذهب بالثواب مهما أتعب نفسه وأجهدها، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، ولا يقصد بإنفاقه المال مكافآت أحد على نعمة كان قد أسلفها ، ولا جزاء معروف كان قد تقدم به إليه .

ويؤكد ه بقوله تعالى : " إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ " . يعنى : إنه يفعل ذلك قاصداً رضا ربه طالباً ثوابه وحده ، ولسوف يرضيه ربه فى الآخرة بثوابه ، وعظيم جزائه والتعبير بقوله تعالى : " وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ " . إيماءً إلى أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفى القليل من المال ، لأن يبلغ العبد منزلة الرضا الالهى ، ولتصحيح إتجاهات القلب ، وضمان تجرده من الأهواء يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيات ، وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْـرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْـهِ " (١) . فالهجرة التى تكون لله غير هجرة المسافر لغرض من الأغراض فالذين تركوا " مكة " مهاجرين إلى " الجنة " أو المدينة فراراً بعقيدتهم غير الذى يهاجر لغرض دنيوي مثل التجارة أو الزواج ، أوغير ذلك . فالرجل الذى يعاشر امرأة بغية العفاف ، وصون دينه له فى ذلك أجر كبير ، قال – صلى الله عليه وسلم – فى جزء من حديث طويل : " في بضع أحدكم صدقة .

1- رواه البخارى .

قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيه أجر ؟ .

فقال : أرأيتم لو وضعها في الحرام أكان عليه فيه وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر (١) .

وما يطعمه المسلم لزوجته ، وأولاده له مثوبةً بنية الخير التى تقارنه . عن سعد بن أبى وقاص – رضي الله عنه – قَالَ مَرِضْتُ بِمَكَّةَ مَرَضاً ، فَأَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ ، فَأَتَانِى النَّبِىُّ – صلى الله عليه وسلم – يَعُودُنِى فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِى مَالاً كَثِيراً ، وَلَيْسَ يَرِثُنِى إِلاَّ ابْنَتِى ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَىْ مَالِى قَالَ « لاَ » . قَالَ قُلْتُ فَالشَّطْرُ قَالَ « لاَ » . قُلْتُ الثُّلُثُ قَالَ « الثُّلُثُ كَبِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَرَكْتَ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِى امْرَأَتِكَ ». فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَأُخَلَّفُ عَنْ هِجْرَتِى فَقَالَ « لَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِى فَتَعْمَلَ عَمَلاً تُرِيدُ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ ، إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ رِفْعَةً وَدَرَجَةً،وَلَعَلَّ أَنْ تُخَلَّفَ بَعْدِى حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضرُ بِكَ آخَرُونَ ، لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ ابْنُ خَوْلَةَ يَرْثِى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ» (٢) .

وقال – صلى الله عليه وسلم – : " إِنَّكَ مَا أَطْعَمْتَ زَوْجَتَكَ فَهُو لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ وَلَدَكَ فَهُو لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُو لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُو لَكَ صَدَقَة " (٣) . والمرء ما دام قد أسلم لله ، وأخلص نيته ، فإن حركاته وسكناته ، ونوماته ويقظاته تعد خطوات إلى مرضات الله .

وقد حدث فى غزوة " العسرة " أن تقدم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجال يريدون أن يقاتلوا الكفار معه ، وأن يجيدوا بأنفسهم فى سبيل الله ، غير أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يستطع تجنيدهم ، فعادوا وفى حلوقهم

1- رواه مسلم .
2- رواه البخارى .
3- رواه أحمد .

غضة ، لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [سورة التوبة:٩٢]. هؤلاء هم مخلصون فى نياتهم ، وصادقون فيما أضمروه . ولذلك قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " أخلص دينك يكفيك العمل القليل " (١) .

يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :" إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (٢) . وفى الحديث : " إذا كان يوم القيامة جيء بالدنيا فيميز منها ما كان لله ، وما كان لغير الله رمي به في نار جهنم " (٣) . ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مَنْ فَارَقَ الدُّنيَا عَلَى الإخلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتاءِ الزَّكَاةِ مَاتَ وَاللَّهُ عَنهُ رَاضٍ ».

قَالَ أَنَسٌ وَهُو دِينُ اللَّهِ الَّذِى جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَبَلَّغوهُ عَنْ رَبِّهِمْ قَبْلَ هَرْجِ الأَحَادِيثِ وَاختِلاَفِ الأَهْوَاءِ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِى كِتَابِ اللَّهِ فِى آخرِ مَا نزلَ يَقُولُ اللَّهُ (فَإِن تَابُواْ) قَالَ خَلَعُوا الأَوْثَانَ وَعِبَادَتها (وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ) وَقَالَ فِى آيَة أُخرَى (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِى ٱلدِّينِ) (٤) . والإخلاص يسطع شعاعه فى النفس وهوأشد ما يكون تألقا فى الشدائد المحرجة ، فعندها ينسلخ الإنسان من أهوائه ، ويصبح فى ساحة الله أو أباً طمعاً فى رحمته وخوفاً من عذابه . وحرارة الإخلاص تنطفئ رويداً رويداً كلما هاجت فى النفس نوازع الإثراء وحب الثناء ، والتطلع إلى الجاه ، ويعي الصيت والرغبة فى العلووالافتخار وذلك لأن الله يحب للعمل أن ينتقى من كل شائبةٍ

1- رواه الحاكم .
2- رواه مسلم .
3 - رواه البيهقى .
4 - رواه ابن ماجة .

تشوبه ، قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٣]. والمعنى : إلا لله العبادة والطاعة وحده لا شركة لأحد معه فيها ، لأن كل ما دونه ملكه ، وعلى المملوك طاعة مالكه وفى حديث الحسن عن أبى هريرة – رضي الله عنه- : " جاء رجلٌ إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إني أتصدق بالشيء وأَصنع الشيء أريد به وجه الله وثناء الناس ،

فقال الرسول الكريم : والذي نفسُ محمدٍ بيده ، لا يقبل الله شيئا شُورك فيه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [سورة الكهف:١١٠]. قال رجل : يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا حتى نزلت هذه الآية { فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } .

عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال : أنبئني عما أسألك عنه أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد و يحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد فقال عبادة : ليس له شيء إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهوله كله لا حاجة لي فيه .

إن ضعف الإخلاص عند كثير من أصحاب المواهب يجعل البلاد تشقى بمواهبهم . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك " (١) .

1- رواه الترمذى .

والإخلاص العميق ألزم ما يكون لميادين العلم والثقافة ، ومن الشفاعة أن يسخر للشر أو تختلط به الأهواء والفتن ، وإن العالم لم تصبه الجرارات القاتلة إلا على أيدي علماء فقد الخلق الفاضل ، والنزاهة المحمودة ، وقد أوجب الإسلام على الأستاذ والطالب أن يتجرد للعلم ، وأن ينظر لِلمُثُل العليا والمصلحة العامة . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من تعلم علماً يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة . يعنى : لا يجد رائحة الجنة (١) .

وقد كان سحرة " فرعون " آية فى اليقين والإخلاص ، وذلك عندما رفضوا الإغراء ، وحقروا الإرهاب ، وداسوا حب المال والجاه وقالوا " لفرعون " ما حكاه القرآن الكريم – سبحانه وتعالى-: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [سورة طه:٧٢:٧٣]. هذا هو الإخلاص ، وهو خُلُق من أخلاق القرآن الكريم ، وَالسُنة النبوية المطهرة ، فما أحوج المسلمين فى هذا العصر إلى الإخلاص فى حركاتهم ، وسكناتهم ونومهم ويقظتهم ، وفى نهارهم ، وفى ليلهم خوفا من الله – عز وجل – وطمعاً فى رحمته ، وطلباً للنجاة فى يوم تشهد عليهم فيه ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يضمرون، ويخفون فى أنفسهم . هذا اليوم الذى يجازى الله فيه المخلصين على إخلاصهم وجزاؤهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . (٢) .

1- رواه ابوداود .
2 - تفسير المراغى ، جـ ١٠ ، ص ١٦٥ وما بعدها .

سلامة الصدر من الأحقاد

ليس هناك أروح للمرء ، ولا أطرد لهمومه ، ولا أقر لنفسه وعينه من أن يعيش المسلم سليم القلب ، مبرأ من وساوس الضغينة ، ونوران الأحقاد . إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها وأحس فضل الله فيها ، وفقر عباده إليها ، وذكر قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مَنْ قَالَ حِينَ يُصبِحُ : اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ ، أَوبِأَحَدٍ مِنْ خلْقِكَ ، فَمِنكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَلَكَ الشُّكْرُ ، أَدَّى شُكْرَ ذلكَ الْيَوْمِ وَفِي رِوَايَةٍ : وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ " (١) . وإذا رأى أذى يلحق أحداً من خلق الله رثى له ، ورجا الله أن يفرج كربه ، ويغفر ذنبه ، وذكر مناشدة الرسول ربه :

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك ما ألما

وذلك يَحْيا المسلم صاحب صفحةً ناصعةً راضياً عنه ربه وعن حياته ، مستريح النفس من الحقد الأعمى ، والحسد الغاشم ، فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ، والقلب المشرق يبارك الله فى قليله .

عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – :" سئل عن أفضل الناس فقال: " كل مخموم القلب صدوق اللِّسان " ، فقالوا : صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ؟ قال : " هو التقي ، النقي ، لا إثم فيه ، ولا بغي ، ولا غل ، ولا حسد " (٢) .

ومن ثم كان المسلم حقاً ، وكانت الجماعة المسلمة هى التى تقوم على عواطف الحب المشترك ، والود والتعاون المتبادل ، وهى كما وصف القرآن الكريم : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر: ١٠].

1 - رواه ابوداود.
2 - رواه ابن ماجة .

والمعنى هؤلاء هم المؤمنون المستحقون للإحسان والفضل ، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، ويدعون للمؤمنين بقولهم : " رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ " .

يقول " أبوالسعود " : " ووصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ولا تجعل فى قلوبنا غِلاً وقَرَىَٔ غمراً وهما الحقد للذين آمنوا على الإطلاق ربنا إنك رؤوف رحيم أي مبالغ فى الرأفة والرحمة فحقيق بأن تجيب دعاءنا ألم تر إلى الذين نافقوا حكايةً لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم . ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى " : " وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء أي الغنيمة نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم { رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } . وقال " الشيخ زادة " : " وبين تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية .

وقد روى عن " الشعبي " أنه قال : " تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم ؟

فقالوا: أصحاب موسى.

وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم ؟

فقالوا: أصحاب عيسى .

وسئلت الرافضة : من شر أهل ملتكم ؟

فقالوا: أصحاب محمد ، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم ، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة ، لا تقوم لهم راية ، ولا تثبت لهم قدم ، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم .

وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس ، وذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره ، وربما تخلف حيث سبق آخرون ويجب على المسلم أن يكون أوسع فكراً وأكرم عاطفة وذلك بالنظر إلى الأمور من خلال الصالح العام . وقديما رأى " إبليس " أن الخطوة التى يتشهاها قد ذهبت إلى " آدم " – عليه السلام – فآلي ألا يترك أحداً يستمتع بعده بعد ما حُرِمّ هومنها . قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [سورة الأعراف:١٦ :١٨].

وفى معنى سلامة الصدر من الأحقاد يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة يونس:٥٧ :٥٨]. والمعنى قد جاءكم هذا القرآن العظيم وهو موعظة لكم من خالقكم وشفاءً لما فى صدوركم من الشك والجهل ، وهدايةً من الضلال ، ورحمةً لأهل الإيمان يقول صاحب " الكشاف " : والمعنى : " قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ " . أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد وهو شفاءً أي دواءً لِّمَا فِي صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاءً إلى الحق وَرَحْمَةً لمن آمن به منكم . " قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ " يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " فضل الله هو" القرآن " ، ورحمته الإسلام . والمعنى : ليفرحوا بهذا الذى جاءهم من الله ، من القرآن والإسلام فإنه أولى ما يفرحون به هوخير مما يجمعون من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والنعيم الزائل

فإن الدنيا بما فيها لا تساوى جناح بعوضة ، كما ورد به الحديث الشريف : " "لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا " . يقول الصحابي الجليل : " محمد بن أبى المغيرة " : " سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " "لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا " . فقال هذا الصحابي ، وكان شاعراً:

جاء الحديثُ بأن الأرض أجمعها وما حوتْ لا تساوي عند باريها
بعوضةً أو جناحاً من مطائرها لم يسقَ منها ولو فاضتْ مآقيها
من يكفر الواحدَ؟ الجبار نعمته مجاجةً من أحاج ربه فيها
لكنه هانت الدنيا عليه فلم يمنعك إن ملكت كفاك ما فيها

ثم أن الحاسد شخص واهن العزم ، جاهل بربه وبسنته فى كونه فلما فاته الخير تحول يحسد الناجحين . قال الشاعر :

حسدوا الفتى أن لم ينالوا سعيه فالقوم أعداءٌ له وخصوم
كضرائرِ الحسناء قُلْنَ لوجهها حَسَداً وبُغضاً إنّه لَمَشُوم

وكان أجدى عليه أن يتحول إلى ربه ، ويسأله من فضله فإن خزائنه ليست حكراً على واحد بعينه ، فلما عجز عنه فى البداية يدركه فى المرة الثانية فهذا بلا ريب أشرف من الحسد والضغينة على الآخرين . والفرق شاسع بين الحسد والطموح ، بين الحسد والغبطة . فالإسلام يتحسس النفوس بين الحين والحين ليغسلها من أدران الحقد ليجعلها حافلةً بمشاعر أزكى وأنقى نحو الناس والحياة . قال رسول – صلى الله عليه وسلم – : " ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً رجل أمّ قوماً وهم له كارهون . وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط وأخوان متصارمان " (١) . أي متقاطعان . هذا هو الإسلام الذى يأمرنا بالتخلق

1 - رواه ابن ماجة .

بهذه الأخلاق الكريمة وهى سلامة الصدر من الأحقاد ، ونقاؤها من الغِلِّ وصفاؤها حتى يسلم المجتمع الاسلامى من هذه الآفات ، ونعمة الرحمة والإخلاص وسلامة الصدور من الأحقاد التى تفتك بالمجتمع الاسلامى (١).

القوة

إن العقيدة المتينة مُعِين لا ينضب للنشاط ، والحماسة المذرية وتحمل الصعاب ، ومواجهة الأخطار ، بل هى سائق حثيث يدفع إلى لقاء الموت دون تهيب . تلك طبيعة الإيمان إذا استكمن من المسلم . إنه يضفى عليه قوة هائلة تظهر فى سلوكه ، وكل أعماله وأحواله . يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٣٩:٤١]. والمعنى اعملوا على ما انتم تعتقدون فى أنفسكم من القوة والشدة ، واجتهدوا أى أنواع مكركم ، وكيدكم ، فإني عامل أيضا فى تقرير ديني ، والسعي فى نشره بين الناس فسوف تعلمون أن العذاب والخزي فى الدنيا يصيبني ، أويصيبكم ، فيظهر حينئذٍ أَيُّنا المبطل أنا أو أنتم ، ويحل عَلَيَّ العذاب المقيم الدائم فى الآخرة أو عليكم .

ومن معاني القوة قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا تكونوا إمعةً تقولون إن أحسن الناس أَحَسنَّا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا "(٢) . والرجل الضعيف هو الذى تستعبده الأعراف والتقاليد التى يعج المجتمع والتى يسودها غالباً التعصب

---

1 - تفسير ابى السعود جـ ٥ ، ص ١٥٢ .
2 - رواه الترمذى فى سننه .

والنزعات القبلية التى هى أشد ما تكون خطر أو فساداً على الدين أكثر من الجاهلية الأولى ، بل هى جاهلية حديثة . وهذه العصبيات ، وتلك الأعراف تجر على المسلم متاعب كثيرة فى الدنيا والآخرة والباطل الذى يروج أحياناً ، ثم يثور الأقوياء عليه من أجل باطل انخدع به أمسى نصيراً لمن خاصمهم ، مستريحاً إلى ما علم منهم، مؤيداً لهم بعد شقاق .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " مَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ فِي رِضَا الناسِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وأَسْخَطَ عَلَيْهِ مَنْ أرضاهُ فِي سَخَطِهِ، وَمَنْ أَرْضَى اللَّهَ فِي سَخَطِ الناسِ رَضِي اللَّهُ تعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَى عَنهُ مَنْ أَسْخَطَهُ فِي رِضَاهُ حتى يزينه وَيُزيِّنَ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ فِي عَيْنِهِ. (١)

إن الإيمان بالإسلام يجعل أصحابه أقوياء راسخين .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٤٢] . أجل : يجب على المسلم أن يكون شاعراً بقوة اليقين فى شخصه ، وروعة الإيمان فى نفسه إن لم يستطع فرض ذلك على ما حوله بقى كالطود الشامخ الأشم لم تطوه اللّجج الصاخبة ، وما الذى يستطيع الناس فعله لامرئ يعتز بإيمانه ، ويستشعر القوة من نفسه لصلته القوية بربه واستعاضته فى دينه إنهم لو اجتمعوا عليه جميعاً ما استطاعوا النيل منه .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا غلام ألا أعلمك كلمات لعل الله أن ينفعك بهن قلت : بلى يا رسول الله قال : أحفظ الله يحفظك أحفظ الله تجده أمامك تَعَــرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة إذا

1 - رواه الطبراني .

سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله قد جف القلم بما هو كائن فلو اجتمع الخلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله في أُم الكتاب لم يستطيعوا ولو اجتمع الخلق على أن يضروك بشيء لك يكتبه الله في أُم الكتاب لم يستطيعوا فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فافعل وإن لم تستطع فإن الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفَرَجْ مع الكرب وأن مع العسر يسراً. [(١)] . والحقيقة أن فضيلة القوة ترتكز فى نفس المسلم على عقيدة التوحيد ، كغيرها من الفضائل التى تجعله يرفض الهوان فى الأرض ، لأنه رفيع القدر بانتسابه إلى السماء ، ولأنه يستطيع فى نطاق إيمانه أن يكون أَمة واحدة ، وفى فمه قول الله – عز وجل – : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١٤:١٥]. ويقول الحق – سبحانه وتعالى – ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [سورة النحل:١٢٠] فهو أمة لوحدة بقوة يقينه وقوة صلته بخالقه ، وتمسكه بعقيدته ، واتصاله بربه – سبحانه وتعالى.

ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " إِنمَا الناسُ كَالإِبِلِ الْمِائهِ لاَ تَكَادُ تجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً " . فإذا ما أردت الحصول على " جمل " لتأكل منه لحما عثرت عليه بسهولة ويسر كبيرين لأن كل بعير فيه لحم ، لكنك إذا أردت " بعيراً " ترحل عليه وتتخذه سفينة للصحراء عَزَّ العثور عليه ، ولن تحصل عليه إلا بشق الأنفس ، فالناس كذلك مائه لا تجد فيها راحلةً .

ومن فضائل القوة التى يوجهها الإسلام أن تكون وثيق العزم . مجتمع النية على إدراك هدفك بالطرق السليمة ، والوسائل الصحيحة فعن عوف بن مالك – رضي الله عنه – قال : " أَنَّ النبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ.

---

1 - رواه مسلم .

فَقَالَ الْمَقْضِىُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِىَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَ النَّبِىُّ –صلى الله عليه وسلم– « إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ».(1)

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَو أَنى فَعَلْتُ كَانَ كَذا وَكَذا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوتَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »(2) . فإن الهزيمة أمام الشيطان الذى يجعلك تتحسر على ما فات ليس من خلق المسلم الذى يأمره القرآن فالواجب على المسلم ألا يبكى الماضي وليعيش مهموزاً فى نفسه ، وتخور قواه أما المواقف الصعبة بل يأخذ من الماضي عبرة وعظة يفيد منها فى مستقبله وينتفع بها فى حاضره ، وقد عده القرآن الكريم مظهراً من مظاهر الحسرة التى تتلجلج فى قلوب الكافرين .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٦]. ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله" . وإن التوكل على الله الذى يقوى الإنسان لون من ألوان الثقة بالله . يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [سورة إبراهيم:١٢]. والمعنى : وما ينبغي لنا أن نأتيكم بحجة وآية مما أقترتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه وعليه وحده يعتمد المؤمنون فى جميع أمورهم ، وقالت الرسل : " اى شيء يمنعنا من التوكل على الله ؟ . وقد نصرنا – سبحانه وتعالى – بطرق النجاة من

1- رواه ابى داود .
2- رواه مسلم .

عذابه ، ولتصبرن على آذاكم . يقول ابن الجوزى : " إنما قص هذا وأمثاله على نبينا – صلى الله عليه وسلم - ليقتدي بمن قبله فى الصبر ، وليعلم ما جرى لهم ." ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ "وليس هذا تكرار وإنما معناه الثبات على التوكل . والمعنى : " فليداوموا وليستمروا على التوكل عليه وحده .

وقد نصح الله – عز وجل – قوم هود فأرشدهم إلى أسباب القوة الصحيحة وكانوا عمالقة جبارين : فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة هود:٥٢]. والمعنى : استغفروا ربكم من الكفر والإشراك به – سبحانه وتعالى - وارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه ، والتمسك بالإيمان والتوحيد ، وعند ذاك يرسل عليكم المطر غزيراً . روى أن " عاداً " كان قد حبس عنهم المطر " ثلاث سنوات " حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم " هود " - عليه السلام - بالتوبة ، والرجوع إلى الله – عز وجل - والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر . وفى الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبباً للرحمة ، ونزول الأمطار ، وبذلك يزيدكم عزةً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم .

يقول " مجاهد " – رضي الله عنه - : " إن يزدكم شدة إلى شدتكم . فإنهم كانوا فى غاية القوة والبطش . حتى إنهم قالوا : من أشد منا قوة ؟ . ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرين على الإجرام ، واقتراف الآثام ، وارتكاب المناكر ، واجتراح السيئات ومن عناصر القوة أن يكون المسلم صريحً ، يواجه الناس بقلب مفتوح ومبادئ معروفة ، لا يصانع على حساب الحق بما ينقص من كرامته ، بل يجعل قوته من قوة العقيدة التى يمثلها ، ويعيش لها ، ولا يحيد عن هذه الصراحة أبداً فى تقرير حقيقة ما . وحدث أن كَسَفت الشمس على عهد رسول الله – صلى الله عليه

وسلم - يوم مات إبراهيم ابن النبي فقال الناس : كسفت لموت إبراهيم فخطب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال في خطبته : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة(١). وكان من صناعة الدجل أن يتلقن أصحاب الدجل الحوادثَ المقارنة لبعض الأحوال فيزعموا أنها كانت لذلك مع أنها تنفع أقواماً وتضر بآخرين . ومن القوة التى يجب أن يتصف بها المسلم الجرأة فى الحق ، فيجب عليه أن يكون نقاداً للعيوب الفاشية ، جريئاً فى الحملة عليها لا يتهيب كثيراً ، ولا يستحى من قريب ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقد كره الإسلام أن يضعف الرجل أمام العصاة من الأكابر ، وأن يناديهم بألفاظ التكريم .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا قال الرجل للمنافق : يا سيد ، فقد أغضب ربه " (٢) . وقد ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصحاب الجنة وَخِلالِهم ، وأصحاب النار وخلالهم فعد فضائل القوة ، والكرامة ، وَالنُبْل فى الأولين ، وقرن رذائل الهوان والاختلاس ، والعجز والتلاعب بالآخرين قال - صلى الله عليه وسلم - : " أَهْلُ الْجَنَةِ ثَلاثَةٌ: إِمَامٌ مُقْسِطٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ غَنِيٌّ عَفِيفٌ مُتَصَدِّقٌ، وَأَهْلُ النارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الَّذِي لا رَبّ لَهُ، وَالَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعٌ لا يَبْغونَ أَهْلا وَلا مَالا، وَرَجُلٌ إِذَا أَصْبَحَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وَرَجُلٌ لا يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ وَإِنْ دَقَّ إِلا ذَهَبَ بِهِ، وَالشنظِيرُ الْفَحَّاشُ"وَذَكَرَ الْبُخْلَ وَالْكَذِبَ (٣) . وكلمة : يخفى فى الحديث لفظ يستعمل فى الظهور. والشنطير هو: سيء الخلق ، الفحاش والشنطير هى الشتم .

1 - رواه البخاري .
2 - رواه الحاكم .
3 - رواه مسلم .

وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستعيذ بربه من هذه المصائب الهدامة فيقول – صلى الله عليه وسلم - : " إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال " (١) . وإن الصبر والرجاء هما عدة اليوم والغد ، ويحتمل المرء فى طلبهما المصائب الفادحة فلا يذل ، بل يظل محصنا من نواحيه كلها ، عالياً على الأحداث ، والفتن لأنه مؤمن قوى الإيمان ، وقوى العزيمة ، والمؤمن الصادق الإيمان لا يضرع إلا إلى الله . ولا يرجوا أحدا سواه . هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة . والتى يجب على المسلم أن يتحلى بها حتى يكون ذا قوة تمكنه من مواجهة أعباء الحياة فى كل ميادينها ، فالقوة مطلوبة لأن يتسلح بها المؤمن وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍ خير " (٢) .

1 - رواه ابوداود .
2 - تفسير المراغى جـ ٨ ، ص ٩ .

الجود والكرم

إن الإسلام دين يقوم على البذل والعطاء والكرم والإنفاق ، ويمقت الشُحَ والإمساك والبخل ، ولذلك حبب المسلم فى السخاء والإحسان . يقول الحق – سبحانه وتعالى-:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٧٤] . والمعنى : إن الذين ينفقون فى سبيل الله ابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات ، من ليل ونهار ، وفى جميع الأحوال سراً وعلانيةً فلهم ثواب ما أنفقوا ولا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم فى الدنيا .

ويقول " المراغى " فى تفسيره : " إن الذين ينفقون أموالهم فى جميع الأزمنة وفى سائر الأحوال ، ولا يجحدون عن البذل إذ لاح لهم وجه الحاجة إلى ذلك، لهم ثوابهم عند ربهم فى خزائن فضله ، ولا خوف عليهم حين يخاف الباخلون من تبعة بخلهم بالمال وحبه حين الحاجة إلى بذله فى سبيل الله ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من صالح العمل الذى يرجون به ثواب الله . ذلك أن نفوسهم قد سمت ، وبلغت حداً من الكمال لم يبق لسلطان المال معه موضع فى قلوبهم ، وأصبحت مرضاته الشغل الشاغل لهم . فلا يستريح لهم بال إلا إذا سدوا ثغرةً فتحها عدو وهؤلاء هم المؤمنون حقاً ، الذين يبغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، وإنما قدم اللَّيل على النهار ، والسر على العلانية للإيماء إلى تفضيل صدقة السر على صدقة العلانية ، وجمع بين السر والعلانية إيماءً إلى أن لكل منهما موضعاً تقتضيه المصلحة قد يفضل فيه سواه ، إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها .

وقد روى أن الآية نزلت فى " أبى بكر الصديق "– رضي الله عنه – إذ أنفق أربعين ألف دينار ، عشرة بالليل ، وعشرة بالنهار ،وعشرة بالسر ، وعشرة بالعلانية . وأخرج " ابن جبير " بسند ضعيف عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنها نزلت فى " على بن طالب " – كرم الله وجهه – كانت له أربعة دراهم ، فأنفق

بالليل درهما ، وبالنهار درهما ، ودرهما فى السر ، ودرهما فى العلانية . فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: " ألا إن ذلك لك " .

ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم - : " يا ابن آدم إنك تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف ، وأبدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى " (١) . وقد وجه القرآن الكريم المُنْفِقين إلى أوجه النفقة دون سرف ، أو شره أو تبذير وأن الحق لذوى القربى ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، فقال – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [سورة الإسراء:٢٦: ٣٠]. ويمضى السياق فى الإيصاء بالمحتاجين ، وصيانة حقوقهم ووجوههم فأمر المسلم أن يرجيهم الخير ، وأن يرد بميسور القول إذا كان لا يملك إيتاءهم ما بيتغون . يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - : " وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا " . ويقول الإمام الشيخ " محمد الغزالي " – رحمه الله تعالى - : " ودعوة الإسلام إلى الجود والإنفاق مستفيضة مطرد ، وحربه على الكزازة والبخل موصولة متقده (٢) . وفى الحديث : " السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ " (٣) . ولا

1- رواه مسلم .
2- خلق المسلم ص ١٠٩ .
3- رواه الترمذى .

يوجد نظام يستغنى الناس فيه عن التعاون : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الفرقان:١٩:٢٠]. والإسلام بشرائعه المحكمة يسعى لتحقيق الأهداف النبيلة ، ويدعوا المسلمين إلى النشأة الكريمة ، وإسداء العون والمساعدة لذوى الحاجات والمعوزين . وقال تعالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة محمد:٣٧:٣٨].

ومن معاني الجود والكرم فى القرآن الكريم قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة التغابن:١٥:١٦]. يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : " كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرةً، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم . وقوله تعالى: { وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ } أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرّاً لكم في الدنيا والآخرة. وقوله: { وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . أي من سلم من الشح أفلح وأنجح . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ «

اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ».(١)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عَمْرٍو، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:"إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلا التَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَمَرَهُمْ أَنْ يَقْطَعُوا أَرْحَامَهُمْ فَقَطَعُوا"، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ ؟، فَقَالَ:"أَنْ يُرَاقَ دَمُكَ، وَيُعْقَرَ جَوَادُكَ "، قَالَ: فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ:"أَنْ تَهْجُرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ، وَهُمَا هِجْرَتَانِ: هِجْرَةٌ لِلْحَاضِرِ، وَهِجْرَةٌ لِلْبَادِي، فَأَمَّا هِجْرَةُ الْبَادِي فَإِذَا دُعِيَ أَجَابَ، وَإِذَا أُمِرَ أَطَاعَ، وَأَمَّا هِجْرَةُ الْحَاضِرِ فَأَشَدُّهُمَا بَلِيَّةً، وَأَعْظَمُهُمَا أَجْراً".(٢)

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم –« لاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِى جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِى جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ ».(٣) ويقول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – : " ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له " . وفى الحديث : " اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »..

وعن أَبُو زُرْعَةَ حَدَّثَنَا أَبُوهُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَىُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً . قَالَ – صلى الله عليه وسلم – : « أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى ، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا ، وَلِفُلاَنٍ كَذَا ، وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ » (٤). والبذل الواسع عن إخلاص ورحمة ، يغسل الذنوب ، ويمسح الخطايا . يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة التغابن:١٨] .

---

1 - رواه مسلم .
2- رواه احمد وابوداود .
3- رواه مسلم .
4- رواه البخاري .

وعن أبى ذر الغفاري – رضي اللّه عنه - قال : تعبد عابد من بني إسرائيل فعبد اللّه في صومعته ستين عاماً ، فأمطرت الأرض ، فاخضرت فأشرف الراهب من صومعته . فقال : لو نزلت فذكرت اللّه لازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ، ثم أغمي عليه ، فنزل الغدير يستحم فجاءه سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين أو الرغيف ، ثم مات . فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له)[١] .

وقال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم - : " صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، والصدقة خفياً تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم زيادة في العمر ، وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف " [٢]. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، وردوا نائبة البلاء بالدعاء والتضرع » [٣]. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللّه عليه وسلم: "مَا يُخْرِجُ رَجُلٌ شَيْئاً مِنَ الصَّدَقَةِ حَتَّى يَفُكَّ عَنْهَا لَحْيَيْ سَبْعِينَ شَيْطَاناً ،كلهم عنها". وروى عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم– « مَا بَقِىَ مِنْهَا ». قَالَتْ مَا بَقِىَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قَالَ « بَقِىَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا ». يعنى ما أنفق فهو الباقي على وجه الحقيقة ، وما تبقى منها فهو الهالك قال تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [سورة النحل:٩٦]

ويروى لنا الرسول عن ربه هذا الحديث : " يا ابن آدم ، أودع من كنزك عندي لا حرق ، ولا غرق ، ولا سرق أوفيكهُ أحوج ما تكون إليه " [٤] . وقد يظن

1- رواه ابوحبان .
2 - رواه الطبراني .
3 - رواه ابوداود .
4 - رواه البيهقى .

البعض أن السخاء ينقص الثروة ، ويدنى من الفقر ، وتلك وساوس الشيطان الذى يقعد للمسلمين كل مرصد ليصدهم عن فعل الخير ، ويأمرهم بالشر ، والحق أن الجود والكرم طريق السعة ، وجلب الخيرات ، ودفع المضار .

وفى الحديث : " ثَلاَثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ ». قَالَ « مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ اللَّهُ عِزّاً وَلاَ فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ أَوكَلِمَةً نَحْوَهَا وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ . قَالَ « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْماً فَهُوَيَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقّاً فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْماً وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوصَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوأَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوبِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً فَهُوَيَخْبِطُ فِى مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقّاً فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْماً فَهُويَقُولُ لَو أَنَّ لِى مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُو بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ " (١) . فظن المسلم أن الصدقة والجود والكرم ينقص المال فتلك وساوس الشيطان التى يلقها فى نفوس القاترين الأدنياء .

وفى معنى الجود والكرم يقول الحق – سبحانه وتعالى-: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة سبأ:٣٧:٣٩]. والمعنى : وما أنفقتم من شيء فيما أمركم به ربكم وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم ويعوضكم بدلاً منه ، فى الدنيا مالا ، وفى الآخرة ثواباً ، كل خلف دونه وفى الحديث : " أنفق بلالاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالا " .

1- رواه الترمذى .

وعن " مجاهد " – رضي اللّه عنه – : " إذا كان لأحدكم شيء فليقتصد ويتأول هذه الآية { وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ } فإن الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل وهوينفق نفقة الموسع عليه : أي ما كان من خلف فهو منه تعالى وربما أنفق الإنسان ماله كله في الخير ولم يخلف حتى يموت ، ومثلها { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا } . يقول ما آتاها من رزق فمنه تعالى وربما لم يرزقها حتى تموت ، والآية تحث على الإنفاق وأن البسط والقدر إذا كانا من عنده – عز وجل – فلا ينبغي لمن وسع عليه أن يخاف الضيعة بالانفاق ولا لمن قدر عليه زيادتها ، وقوله تعالى : { وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ } تذييل يؤيد ذلك كأنه قيل : فيرزقه من حيث لا يحتسب . وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة – رضي اللّه عنه– قال : " قال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول ، أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً "(١) .

وفى الحديث : " قَالَ – صلى الله عليه وسلم – :"يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لا يَقْبَلُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَةً مِنْ رَجُلٍ وَلَهُ قَرَابَةٌ مُحْتَاجُونَ إِلَى صَدَقَتِهِ، وَيَصْرُفُهَا إِلَى غَيْرِهِمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٢) . وقَالَ – صلى الله عليه وسلم – « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ »(٣) .

هذا هو الجود والكرم فى القرآن الكريم وهو خلق المسلم الذى يجب أن يتخلق به فى كل زمان ومكان . والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق يريد أن يرغب المسلم فى الإنفاق فى سبيل اللّه ليسعد المسلم بذلك فى الدنيا بحب الناس له،وقربهم منه ، وفى الآخرة بالثواب الجزيل ، والفوز بجنات عرضها السماوات والأرض أُعدت لأمثاله من المنفقين الذين يضحون بأموالهم كرماً بغية نيل الجزاء الحسن لدى ربهم والتمتع بما أعده لهم من أجر فى دار النعيم ، دار الإقامة الخالدة.(٤).

1- رواه مسلم .
2- رواه الطبراني .
3- رواه الترمذى .
4- تفسير ابن كثير جـ ٤ ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ ، ص ٣٧٧.

الإخاء

ليست هناك دواع تجعل الناس يعيشون أشتاتاً متفرقين بل إنه من الواجب أن يكونوا معتصمين بحبل الله ، متحدين غير متفرقين يكفل بعضهم بعضاَ ، ويحب بعضهم بعضاَ ، ويتعاونون على الخير ونبذ الشر،الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم ويؤكد القرآن الكريم هذا الخلق فيقول – جلا وعلا - : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [سورة الحُجُرات:١٣]. والمعنى : يقول – سبحانه وتعالى - مخبراً للناس أنه خلَقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهو" آدم وحواء " وجعلهم شعوبا وهى لقطةً أعم وأشمل من " القبائل" وبعد القبائل ، الفصائل ، والعشائر والأفخاذ والبطون ، وغير ذلك وقيل : إن المراد بالشعوب بطون العجم ، والمراد بالقبائل " بطون العرب " كما أن " الأسباط " بطون " بني إسرائيل " فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى " آدم وحواء " – عليهما السلام – سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية وهى طاعة الله – سبحانه وتعالى - . ومتابعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار الناس بعضهم بعضا منبها على تساويهم فى البشرية: " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " . يعنى : ليحصل التعارف بينهم كُلٌ يرجع إلى قبيلته، ويقول " مجاهد " –رضي الله عنه - فى قوله تعالى :" {لِتَعَارَفُوٓا۟} ، كما يقال: فلان بن فلان من كذا وكذا، أي: من قبيلة كذا وكذا. وقال سفيان الثوري: كانت " حِمْير" ينتسبون إلى مُخَاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها.

وعن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل ، مثراة في المال، منسأة في الأثر " . ثم يقول الحق – سبحانه وتعالى - : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ } أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى والعمل الصالح لا بالأنساب والمناصب والرتب وكثرة الأصول والعمارات والسيارات . وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال – صلى الله عليه وسلم - : " الاتكال على النسب دون العمل منقصة، من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " . وقال – صلى الله عليه وسلم - : " من أطاعني رحمته ورحمتي تلحق السابع من ولده ، ومن عصاني لعنته ولعنتي تلحق السابع من ولده . وقال – عليه الصلاة والسلام - : " من أطاعني أدخلته الجنة ولو كان عبداً حبشياً . ومن عصاني أدخلته النار ولو كان شريفا قرشيا " . وقد تعارك سليمان الفارسي – رضي الله عنه - مع سيدنا " على بن أبى طالب " – رضي الله عنه - فشكاه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - فقال النبي – صلى الله عليه وسلم - لسيدنا سليمان الفارسي : " أما أنت يا سليمان فقريب قربةً ، وأما أنت يا علي فقريب قرابةً . والقرابة " دم ولحم " والقربة " جسد وروح " وبذلك نرى رسول الله – عليه الصلاة والسلام - يقرب سيدنا سليمان ويقدمه على سيدنا علي بن أبى طالب – رضي الله عنهما أجمعين – وقال – عليه الصلاة والسلام - : " سليمان من آل البيت " . وصدق الشاعر حين قال :

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وحط بالشرك النسيب أبو لهب

عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أي الناس أكرم ؟ قال : " أكرمهم عند الله أتقاهم " .

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: " فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله".

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: " فعن معادن العرب تسألوني؟ "

قالوا: نعم.

قال: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا" (١)

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " . (٢) وعن أبى ذر– رضي الله عنه – قال : إن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال له : " انظر إنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله " (٣) . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " المسلمون إخوة لا فضل على أحد إلا بالتقوى " . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " كلكم من آدم وآدم من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان " .

فالتعارف هوأساس العلائق بين الناس أجمعين ، وكل رابطة توكدها هذا التعارف فهي رابطة يجب دعمها ، وهذه الإخوة هى روح الإيمان الحي ، ولباب المشاعر الرقيقة التى يكنها الإسلام لإخوانه كأفنان منبثقة من دوحة واحدة . يؤكد هذا المعنى قوله – صلى الله عليه وسلم – : " مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى " . (٤)

وقال – صلى الله عليه وسلم – : " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " (٥) . فمن علائم

1 - رواه البخاري .
2 - رواه ابن ماجة .
3 - رواه أحمد .
4 - رواه البخاري .
5- رواه البخاري ومسلم .

الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك وأن تهش ترفع إليه مثلما تبتهج بالغائب حين يصل إليك . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " المؤمن للمؤمن كالبنيان ترفع المرصوص يشد بعضه بعضا " (١) . ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة ، وليست نعمة التجانس الروحي فحسب ، بل نعمة التعاون المادي كذلك .وقد قيل : " المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه" . ويؤكد المعاني التى أومأنا إليها آنفا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٠٢:١٠٤]. والمعنى : " وأذكروا إنعامه عليكم يا معشر العرب حين كنتم أعداء ألداء فألف بين قلوبكم بالإسلام ، وجمعكم على الإيمان .

ويقول المراغى فى تفسيره : " وأذكروا أيها المؤمنون النعمة التى أنعم الله بها عليكم حين كنتم أعداءً يقتل بعضكم بعضا ، ويأكل قويكم ضعيفكم ، فجاء الإسلام فألف بينكم ، وجمع جمعكم ، وجعلكم إخوانا ، حتى قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم ، وكان بعضهم يؤثر غيره على نفسه وهوفى خصاصة وحاجة إليه ، وأطفأ الحروب التى تطاولت بين " الأوس " و " الخزرج " عشرين سنة ومائة . وأنقذهم مما هو أدهى وَأَمَرّ وهو عذاب الآخرة ويقول " القرطبي " : " وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في الفروع : فإن ذلك ليس اختلافاً إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع ومازالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث وهم مع ذلك متآلفون . وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اختلاف أمتي رحمةً " وإنما منع الله اختلافاً هو سبب الفساد . وإن أخو الدين

1 - رواه البخاري .

تعرض التناصر بين المسلمين ،وليس المراد تناصر العصبيات المقيتة ، بل هو تناصر المسلمين الصالحين . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " « انْصُرْ أَخاكَ ظَالِماً أَومَظْلُوماً » .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أنصرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً ، أَفَرَأَيْتَ إِذا كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أنصرُهُ . قَالَ « تحْجُزُهُ أَوتَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ نَصرُهُ » (١) . أو قال – صلى اللّٰه عليه وسلم – : " من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت اللّٰه قدميه يوم تزل الأقدام " (٢) .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [سورة الحُجُرات:٩:١٠].

والمعنى : ليس المؤمنون إلا إخوة ، تجمعهم رابطة الإيمان ، فلا ينبغي أن تكون بينهم عداوةً ولا شحناء ، ولا تباغض ، ولا تقاتل . ويقول المفسرون : " إنما للحصر. فكأنه يقول : لا أخوة إلا بين المؤمنين ولا أخوة بين مؤمن وكافر ، وفى الآية إشارة إلى أن إخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب بحيث لا تعتبر إخوة النسب إذا خلت عن إخوة الإسلام إلا ترى انه إذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين لا لأخيه الكافر وكذا إذا مات أخ الكافر وذلك لان الجامع الفاسد لا يفيد الأخوة وان المعتبر الأصلى الشرعي ألا يرى أن ولدى الزنى من رجل واحد لا يتوارثان . وهذا المعنى يستفاد من الآية أيضاً لأن إنما للحصر فكأنه قيل لا أخوة إلا بين المؤمنين فلا إخوة بين المؤمن والكافر . وكسب المرتد حال إسلامه لوارثه المسلم لاستناده إلى ما قبل الردة فيكون توريث المسلم من المسلم وأما كسبه حال ردته فهو فئ يوضع فى بيت المال لأنه وجد بعد الردة فلا يتصور إسناده إلى ما قبلها . " فأصلحوا بين

1- رواه البخاري .
2- رواه الاصبهانى .

إخوانكم " المؤمنون ، ولا تتركوا الفرقة تدب ، والبغضاء تعمل عملها ، وأتقوا الله تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بجنته ومرضاته.

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر:٩] . والمعنى : " الذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثير من المهاجرين وهم الأنصار – رضي الله عنهم – . ويقول القرطبي : " أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين ، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ، والتبوء هو" التمكن " و " الاستقرار " وليس المراد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد أنهم قبل هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – إليهم وهم يحبون إخوانهم المهاجرين ، ويواسونهم بأموالهم .

يقول " الخازن " : " وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في أموالهم ، ومع هذا البذل والعطاء والتضحية بالأموال وغيرها لإكرام إخوانهم المهاجرين .{ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً } أي لا يجد الأنصار حزازةً وغيظاً وحسداً من إخوانهم المهاجرين { مِّمَّآ أُوتُواْ } أي أعطي المهاجرين من الفيء والغنيمة دونهم وذلك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة . { وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ } أي يفضلون ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم { وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ } أي فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به ، فإيثارهُم ليس عن غنى عن المال ، ولكنه عن حاجة وفقر ، وذلك غاية الإيثار ومن حماه الله وسلم من " البخل " والشح فقد نجا وأفلح ونجح وفاز فى الدنيا والآخرة .

والشح هو" البخل الشديد " مع الجشع والطمع " وهو غريزةً فى النفس ولذلك أضيف إليها . يقول سيدنا عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – : " ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له " . وفى

الحديث : " " اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ". ويقول رسول الله– صلى الله عليه وسلم – : " لا يحل المسلم أن يروع مسلما " (١) .

وروى عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " من نظر إلى مسلم نظرة إلى مسلم نظرة يُخِيفَهُ فيها بغير حق أخافه الله يوم القيامة " (٢) .

ومن معاني الأخوة فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [سورة الحُجُرات:١١]. والمعنى : يا معشر المؤمنين، يا من اتصفتم بالإيمان وصدقتم بكتاب الله ورسوله ، لا يهزأ جماعة ، ولا يسخر أحد من أحد ، فقد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر ، ورب أشعث أغبر ذو طمرين لو أقسم على الله لأَبَرّهُ . ولا يسخر نساء من نساء عسى أن تكون المحتقر منها خيراً عند الله وأفضل من الساخرة . ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم " (٣). وسئل النبي – صلى الله عليه وسلم – : ما العصبية ؟ . قال – عليه الصلاة والسلام – أن تعين قومك على الظلم " (٤) . إن الأخوة فى الإسلام تعنى الإخلاص له ، والسير على منهاجه وسبيله والعمل بأحكامه ، وتغليب روحه على الصلات الخاصة والعامة ، واستفتاءه فيما يعرض من مشكلات ، وغض الطرف عما عدا ذلك من صيحات ودعوات . تلك هى الأخوة فى الإسلام وتلك أخلاق القرآن الكريم ، وسنة نبينا خير الأنام (٥) .

1- رواه ابوداود .
2- رواه الطبراني .
3- رواه ابوداود .
4- رواه ابوداود .
5- تفسير القرطبى جـ ٢ ، ص ١٤٠ وما بعدها .

اختيار الأصدقاء

إن للصداقة الخاصة أثر عميق فى توجيه النفس والعقل ، ولها نتائج مهمة يصيب الجماعة كلها من تقدم وتأخر ، ومن قلق واطمئنان . وقد عنى الإسلام بهذه الصلات التى تربطك بأشخاص يؤثرون فيك ، ويتأثرون بك ويقتربون من حياتك اقتراباً خطيراً لأمد طويل . إن هذه الصلات إن بدأت ونمت نبيلةً خالصةً تقبلها الله وباركها ، وإن كانت رخيصةً مهينةً ردها فى وجوه أصحابها : وهذه المعاني تتجلى واضحة فى قول الله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٧:٦٩]. والمعنى : إن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداءً إلا من كانت صداقته ومحبته لله.

يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه . وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين . تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فيقول : " يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ " . فى هذا اليوم العصيب ، ولا انتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا ، فيقول ابن كثير فى معنى هذه الآية : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، – عز وجل– فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم ، عليه السلام ، لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٢٥] .

وعن عَلِىّ – كرم الله وجهه – قال : خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران ، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلي كان

يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئني أني ملاقيك ، اللهم فلا تضله بعدي حتى تُرِيه مثل ما أريتني ، وترضى عنه كما رضيت عني .

فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً وبكيت قليلاً .

قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما ،

فيقال: ليثن أحدكما على صاحبه ،

فيقول كل واحد منهما لصاحبه : نعم الأخ ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل.

وإذا مات أحد الكافرين، وبشر بالنار ذكر خليله .

فيقول: اللهم إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك ، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني ، وتسخط عليه كما سخطت علي .

قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما .

فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه .

فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ ، وبئس الصاحب ، وبئس الخليل.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وعن أبي هريرة، - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، لجمع الله بينهما يوم القيامة ، يقول: هذا الذي أحببته فِيَّ" . وقوله: { يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ } ثم بشرهم . فقال: { ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ } أي: آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم . فييأس الناس منها غير المؤمنين .

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحدٌ منهم إلا فزع ، فينادي مناد : { يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ } فيرجوها الناس كلهم .

فيجب على المسلم أن يختار صديقة الذى يهديه إلى الخير ويبعده عن الشر، ويأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر فتخير الأصحاب من أعان على طاعةٍ وليس معنى هذا أن يبتعد المسلم عن الناس ولكن المعنى أن يتخير الأصدقاء . قال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : " إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ مُخَالِطاً النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُـمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِى لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ " (١) . وقال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : " إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِى الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِى ظِلِّى يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّى " (٢) .وعن عمر بن الخطاب – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : " إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ».

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ .

قَالَ : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فواللَّـــهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ،وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ، لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَـــافَ النَّـــاسُ وَلاَ يَحْزَنُـــونَ إِذَا حَـــزِنَ النَّـــاسُ» (٣) . وَقَـــرأَ هَـــذِهِ الآيَـــةَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة يونس:٦٢]. قَالَ – صلى اللّه عليه وسلم – :"مَا مِنْ رَجُلَيْنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلا كَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّهِ أَشَدَّهُمَا حُبّاً لِصَاحِبِهِ". (٤)

إن أثر الصديق فى صديقه عميق ، ومن ثم كان لزاما على المسلم أن يتخير الأصدقاء ، وينتقى الإخوان ، وأن يتلو حقائقهم حتى يطمئن إلى معادنها ، ويقف

1 - رواه الترمذى .
2- رواه البخاري ومسلم .
3- رواه ابوداود .
4- رواه الطبراني .

على أصالتها . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مِنْ يُخَالِلْ " (1) .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٢٧:٢٩] . والمعنى : واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط فى جنب الله وعض اليدين كنايةً عن الندم والحسرة . والمراد بالظالم هنا : "عقبة بن معيط " وهى تعم كل ظالم فى كل عصر وزمان ومكان .

يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرْية فيه، وسلك طريقاً أُخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندمَ حيثُ لا ينفعه الندمُ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفاً . وسواءً كان سبب نزولها في " عقبة بن أبي مُعَيط " أوغيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٦٦:٦٨]

فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يديه قائلاً :{ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا } يعني : مَن صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواءً في ذلك " أمية بن خلف، أو أخوه أُبَيّ بن خلف " ، أوغيرهما. { لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ }.وهو القرآن{ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى} أي: بعد بلوغه إِلَيَّ ، قال الله تعالى :{ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا } أي : يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

1- رواه ابوداود .

ثم يقول الظالم : يا ليتنى أتبعت الرسول فاتخذت معه الطريق إلى الهدى ينجيني من العذاب ، ويا هلاكي وحسرتى ، يا ليتنى لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي . ولفظ فلان كناية عن الشخص الذى أضله وهو" أُبَيّ بن خلف " . ويقول " القرطبي " : وكنى عنه ، ولم يصرح باسمه ليتبادل جميع من فعل مثله . حيث انه أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت ، ثم يقول – سبحانه وتعالى - " وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا " . يعنى : يضله ويغويه ، ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره .

لذا أوجب الإسلام على المسلم أن يتخير الصديق ، والجليس الصالح . فقال – صلى اللّه عليه وسلم - : " إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً " (1) .

ومما يؤكد هذه المعاني السامية قول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الجاثية:٢١]. من أجل ذلك كان أصحاب رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم - يجعلون من التواصي بالحق والتعاون على الخير سياجاً يحفظ ما بينهم من ودٍ ، ويقربهم من غفران اللّه ورضوانه . وعن أبى قلابة قال : التقى رجلان في السوق، فقال أحدهما لصاحبه : يا أخي تعال ندعو اللّه ونستغفره في غفلة الناس لعله يغفر لنا . ففعلا فقضى لأحدهما أنه مات قبل صاحبه فأتاه في المنام فقال : يا أخي أشعرت أن اللّه غفر لنا عشية التقينا في السوق " (٢) .

1 - رواه مسلم .
2 - رواه ابن ابى الدنيا .

ومن سنن الإسلام فى الصداقة التزاور يجب أن يكون خالياً من كل غرض ، وأن يكون خالصاً لوجهه – سبحانه وتعالى - . وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم – « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِى قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخاً لِى فِى هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لاَ غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِى اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ – . قَالَ : فَإِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » (١) . إنها خطى تخطى بأعظم الثواب لأنها خالصة لوجهه .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٩٧: ١٠٢]. ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي " (٢) .

فمن ذلك ما قاله يرثي به غالب بن السعدي:

هو الدهر لا يشوي وهن المصائب ... وأكثر آمال الرجال كواذب
فيا غاباً لا غالبٌ لرزيةٍ ... بل الموت لا شك الذي هو غالب
وقالت: أخي، قالوا: أخٌ من قرابةٍ؟ ... فقلت لهم : إن الشكول أقارب
نسيبي في رأيٍ وعزمٍ ومنصبٍ ... وإن باعدتنا في الأصول المناسب
كأن لم يقل يوماً: كأن، فتنثني ... إلى قوله الأسماع وهي رواغب
ولم يصدع النادي بلفظة فيصلٍ ... سنانيةٍ في صفيحتها التجارب (٣)

1 - رواه مسلم .
2 - رواه ابوداود .
3- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ١٦٤ .

القصد والعفاف

يقول الإمام " الغزالي " ولا أعنى به صاحب الإحياء ، وإنما أعنى به إمام العصر الحديث ، ألا وهو الشيخ الجليل ، والمفكر الاسلامى الكبير ، والمرحوم الشيخ " محمد الغزالي " ، والذى يرقد جثمانه فى بقيع الغرقد بالمدينة المنورة – رحمه الله – وصلى الله على ساكنها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – : " قد تضمن الإسلام طائفةً من الإرشادات المتصلة بحياة المسلمين الخاصة ، قصد بها إلى تنظيم شئونهم البدنية والنفسية ، ووضعها على أساس كريم . هى آداب تتعلق بمطعم الإنسان ، وملبسه ، ومسكنه ، وسائر آماله التى يسعى إليها فى هذه الحياة ، لا يجنح بها إلى الرهبانية المغرقة ، ولا إلى المادية الجشعة ، فهي تقوم على التوسط والاعتدال ، ومن ثم ، فتنفيذها سهل قريب " . فحياة المؤمن المُصَدّق بالدار الآخرة ليست كحياة الكافر الذى يعد عمره فوق ظهر الأرض هو دنياه وآخرته ، ولذلك يقول الله فى هؤلاء : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [سورة محمد:١٢]. والمعنى : إن الله ذا الجلال والكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا وصدقوا رسوله وعملوا صالح الأعمال بساتين تجرى من تحت قصورها الأنهار كرامة لهم على إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ، والذين قصدوا توحيد الله وكذبوا رسوله – صلى الله عليه وسلم – يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ، ورياشها ، وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ، ولا معتبرين بما نصب الله لخلقه فى الآفاق والأنفس من الحجج المؤدية إلى معرفة توحيده وصدق رسوله ، فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالفها ومسارحها ، وهى غافلةً عما هى بصدده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم ساهون لاهون عن عذاب السعير ، ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد

عذاب مماتهم ، فالمؤمنون عرفوا أن نعيم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ، وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم ، وإنّ الكافرين غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدنيا كالبهائم حتى ساقهم الخذلان ، إلى مقرهم من درك النيران ، أما المؤمن فهو يقسم آماله على معاشه وميعاده ، وقد عَلَمَنا القرآن الكريم أن التطلع إلى النعمة والسعادة فى كلتا الحالتين هو من أكبر الذكر لله .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة البقرة:٢٠٠:٢٠٣].

والمعنى : إذا دفعتم من عرفات بعد الوقوف بها فاذكروا الله بالدعاء والتضرع ، والتكبير والتهليل عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، واذكروه كما هداكم ذكراً حسناً ، واشكروه على نعمة الهداية والإيمان ، فقد كنتم قبل هدايته لكم فى عداد الضالين ، الجاهلين بالإيمان ، وشرائع الدين ، ثم انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس لا من المزدلفة ، والخطاب لقريش حيث كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم ، وكانوا يقولون : " نحن أهل الله ، وسكان حرمه فلا نخرج منه " ، فيقفون فى المزدلفة ، لأنها من الحرم ، ثم يفيضون منها ، وكانوا يسمون " الحمس " . فأمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يأتي عرفة ثم يقف بها . ثم يفيض منها .

واستغفروا الله على ما سلف منكم من المعاصي ، فإن الله عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، فإذا فرغتم من أعمال الحج وانتهيتم منها فأكثروا ذكره ،وبالغوا فى ذلك ، كما كنتم تذكرون آباءكم ، وتعدون مفاخرهم ، بل أشد .

يقول المفسرون : " وكانوا إذا فرغوا من حجهم وقَفُوا بِمنى ، بين " المسجد " و" الجبل " ، فيذكرون مفاخر آبائهم ، ومحاسن أيامهم ، فأُمِرُوا أن يُبدلوا ذلك بذكر الله ، وذكر إحسانه إليهم ، وشكر ما أسداه إليهم من مفاخر الدنيا والآخرة ، إن آمنوا واتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم . الإشارة : إذا وقَفَت القلوبُ على جَبل عرفة (المعارف) ، وتمكنت من شهود جمال معاني تلك الزخارف ، حتى صارت تلك المعاني هي روحَها وسرَّها ، وإليها مآلها ومسيرُها ، أُمرتْ بالنزول إلى أرض العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، شكراً لما هداها إليه من معالم التحقيق ، وما أبان لها من منار الطريق ، وإن كانت من قبله لمن الضالين عن الوصول إلى رب العالمين .

ومن الناس من تكون الدنيا همه ، فيقول : " اللهم اجعل عطائي ومنحتي فى الدنيا خاصة " ، وما له فى الآخرة من حظ ولا نصيب ، ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة ، وهوا المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير ، وصدقت كل شر ، فالحسنة فى الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك ، والحسنة فى الآخرة تنتظم الأمن من الفزع الأكبر، تيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم . وما إلى ذلك من ألوان النعيم التى لم تسمع بها أُذُن ، ولا تخطر على قلب بشر ، ولم ترها أعين . وهؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات ، والله سريع الحساب ، يحاسب الخلائق بقدر لمحة البصر .

وقد جاء فى النصح " لقارون " ما يؤكد العمل للحياتين معاً ، فإن الدنيا وسيلة ومعبر للآخرة ، وصحة الوسيلة ضمان لنجاح القصد ، كما أن انتظام المقدمات مؤد إلى تحصيل النتيجة المطلوبة . ومن ثم تَضمَن إرشاد الله " لقارون " هذه المعاني كلها ، قال تعالى : ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي

ﭐلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [سورة القصص:٧٧]. والمعنى : واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والخير الوفير ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِرَجُلٍ وَهُوَيَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ " (١) . ثم يؤكد القرآن الكريم على بني الإنسان أن المسلم لا ينسى حظه من الدنيا ومن لذاتها ، وذلك فى مآكلها ومشاربها وملابسها ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً .

وروى عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال : " أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً " . وعن الحسن أنه قال : " قدم الفضل ، وأمسك ما يبلغ " . وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليك فيما أسبغ عليك من نعمه وفضله ، فأيمن خلق الله بمالك وجاهك وحسن لقائهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم ، ولا تصرف همتك بما أنت فيه من نعم أنعمها الله عليك إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله ، حيث إن الله – سبحانه وتعالى – لا يكرم المفسدين فى الأرض ، بل يهينهم ويبعدهم من حظيرة قربه ، ونيل رحمته ومودته .

ولكن " قارون " مع كل هذه المواعظ أبى وزاد فى الجحود والعناد وكفران النعمة فقال : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [سورة القصص:٧٨]. فالإسلام يوصى المسلم ألا يكون عبداً لشهواته ، وأسيراً لنزواته ، يعيش فى الدنيا ليأكل ، فذا ما حرم ذلك امتقع لونه ، وأربد وجهه وتغيرت ملامح وجهه ، وحسب أن الأيام ضده .

1 - رواه البيهقى .

وقد روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " أكثر الناس شبعا فى الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة "(١) . والمعروف أن عدداً كبيراً من الأمراض ينشأ عن امتلاء المعدة بما لا تطيق هضمه . يقول – صلى الله عليه وسلم – : "المعدة بيت الداء ، ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث شرابه ، وثلث لنفسه " . وحدث أن أضاف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجلاً كافراً ، فأمر له بشاة فحلبت فشرب حِلاَبُها ، ثم أُخرى فشرب حلابها ، ثم شرب حلاب سبع شياه ، ثم أصبح فأسلم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة ، فحلبت له فشرب حلابها ، ثم أمر له بأخرى فلم يستتمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المسلم يشرب في مَعِيّ واحد ، والكافر في سبعة أمعاء " (٢) . وبذلك ترى الفارق بين الجاهلية والجاهلين ، وروعة الإسلام ، بل المقصود هنا هو" القصد والاعتدال " فى كل شيء .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [سورة المائدة:٩٣]. وقد رأينا كرم أبى الأنبياء " إبراهيم " – عليه السلام – مع ضيوفه ، فقد بادر بذبح عجل سمين لهم ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٢٧]. وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه فى حياتهم الخاصة ينزلون عند قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ

1- رواه البزار .
2- رواه مسلم .

﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة المائدة:٨٧:٨٨]. وقد نعى الله على قوم ولعهم باللذائذ ، وامتنانهم بالمرح واللهو، وانحصارهم فى مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى ، فقال- سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:٢٠]. وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأن ذلك لفقدانهم "العفاف والقصد " وانطلاقهم مع الغواية والمجون : ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة غافر:٧٥].

والحق أن سبب تصدع الدولة الإسلامية يرجع إلى ضياع " العفة والقصد " وشيوع الملذات ، وقد حذر رسول الله – صلى الله عليه وسلم - أمته من هذا الانحلال النفسي . فعن أبى برزة أن النبي – صلى الله عليه وسلم - قال : " إنما أخشى عليكم شهوات الغنى فى بطونكم وفروجكم ، وَمُضِلات الهوى " (١) . أجل إن التوسط هو لُبُ الفضيلة ، ومن الواجب على المسلم أن يسخر ما يملكه فى هذه الحياة لبلوغ المثل العليا ، لا للانغماس فى الدنايا ، ولا أن تحرم من الحياة أصلاً ، فتقعد ملومً محسوراً .

وهذا ما عناه النبي – صلى الله عليه وسلم - عندما بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِى بِجِزْيَتِهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ الْعَلاَءَ بْنَ الْحَضْرَمِىِّ، فَقَدِمَ أَبُوعُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ فَوَافَتْهُ صَلاَةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآهُمْ وَقَالَ « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِى عُبَيْدَةَ ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَىْءٍ » . قَالُوا أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ

1- رواه أحمد .

قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ »[1] . وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " السَّمْتُ الْحَسَنُ وَالتُّؤَدَةُ وَالاقْتِصَادُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ "[2] .

هذه هى أخلاق القرآن الكريم . ومنها " القصد والعفاف " ، ومن صور القصد : القصد فى كل شيء حتى " المشي " . يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [سورة لقمان:١٨:١٩]. وهو منهج إسلامي لو استمسك به المسلمون لسعدوا فى الدنيا وفازوا برضوان الله تعالى فى الدار الآخرة ولنعم دار المتقين . أصحاب " القصد والعفاف " . والمراد بالقصد هو: الاعتدال فى كل شيء يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٣١]. وقال تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٢٦:٢٧]. وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ [سورة المؤمنون:٥١] .

1 - رواه البخارى .
2 - رواه الترمذى .

النظافة والتجميل والصحة

إن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التى وجه الإسلام إليها عناية فائقة ، وَعَدّها من صميم رسالته ، ولن يكون الشخص راجحاً فى ميزان الإسلام ، محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمهُ بالنظافة والتشذيب ،والتهذيب وكان نظيفً فى مأكله ، وفى مشربه ، وفى ملبسه ، وهيئته الخاصة ، بمنأى عن الأحوال المنفرة ، وإن النظافة صلاح للمسلم فى كل أحواله ، والنظافة لها كبير الأثر فى تزكية النفس ، وتمكين المسلم من النهوض بأعباء الحياة ، وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم القوى والبدن القوى الصبور. وهذه الأمور من أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فقد كرم " القرآن " البدن وكذلك السنة النبوية الكريمة ، وجعل طهارته أساساً لابد منه لكل صلاة وجعل الصلاة واجبةً " خمس مرات " فى اليوم والليلة ، وكلف المسلم بغسل بدنه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك مثل " الغسل من الجنابة " وفى يوم الجمعة " .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [سورة المائدة:٦]. والمعنى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا الوجوه والأيدى من المرافق ، وامسحوا رءوسكم ، واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، يعنى معهما .

يقول " الزمخشرى " : " فجيء بالغاية إماطة لظنّ ظانّ يحسبها ممسوحة، لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة . وعن علي - رضي اللّه عنه - : أنه أشرف على فتية من قريش فرأى في وضوئهم تجوزاً ، فقال : " ويل للأعقاب من النار " ، فلما سمعوا جعلوا يغسلونها غسلاً ويدلكونها دلكاً . وعن ابن عمر قال : كنا مع رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - فتوضأ قوم وأعقابهم بيض تلوح فقال : " ويل للأعقاب من النار " . وهذا الحديث يرد على " الامامية " الذين يقولون بأن الرجلين فرضهما المسح لا الغسل ، والآية صريحة لأنها جاءت " بالنصب " فهى معطوفة على المغسول ، وجيء بالمسح بين المغسولات لإفادة الترتيب ، وإن كنتم فى حاله جنابة فتطهروا بغسل جميع البدن .

ويقول " المراغى " فى تفسيره لهذه الآية : " إذا أردتم القيام إلى الصلاة على حد قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة النحل:٩٨]. بمعنى أن إذا أردت قرأته وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثاً ، أي إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأمسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وهذا التقيد مستفاد من السنة العملية فى الصدر الأول .

فقد روى " احمد " و" مسلم " وأصحاب السنن من حديث " بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ النَّبِىُّ –صلى الله عليه وسلم– يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ وَصَلَّى الصَّلَوَاتِ بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئاً لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ. قَالَ « إِنِّى عَمْداً فَعَلْتُ يَا عُمَرُ » (١) .

وروى البخاري وأصحاب السنن عن " عمر بن عامر " الآنصارى سمعت أنس بن مالك يقول : " كان النبي –صلى اللّه عليه وسلم– : يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ ،

1- رواه مسلم .

قَالَ : قُلْتُ : فَأَنْتُمْ ، كَيْفَ تَصْنَعُونَ ؟ قَالَ : كُنَّا نُصَلِّي الصَّلاَةَ بِطُهْرٍ وَاحِدٍ مَا لَمْ نُحْدِثْ(١) .

وروى أحمد والشيخان من حديث أبى هريرة مرفوعا : " لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ صَلاَةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ " . فهذه الأخبار تدل على أن المسلمين لم يكونوا فى عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – يتوضؤن لكل صلاة ، وإنما كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتوضأ لمل صلاة غالبا ، وصلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد أمام الناس لبيان جواز ذلك ، ومن ذلك يعلم أن الوضوء لكل صلاة عزيمة ، وهوالأفضل ، وإنما يجب على من أحدث ، وآخر الآية يدل على ذلك ، فإنه ذكر الحَدَثَيّن ، ووجوب التيمم على من لم يجد الماء بعدها فعلم منه أن من وجده وجب عليه أن يتطهر به عقبهما ولو كانت الطهارة واجبةً لكل صلاة لما كان لهذا معنى . والخلاصة إن الوضوء لا يجب إلا على المحدث ، وإنما يستحب تجديده لكل صلاة .

روى مسلم من حديث أبى هريرة – رضي الله عنه – أنه يَتَوَضَّأُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ فَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى الْعَضُدِ ثُمَّ يَدَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى الْعَضُدِ ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى السَّاقِ ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِى السَّاقِ ثُمَّ قَالَ هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَتَوَضَّأُ. وَقَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم– « أَنْتُمُ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ ».

وإن كنتم أصابكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها فتطهروا منها بغسل البدن كله قبل دخولكم فى صلاتكم التى قمتم إليها . هذا وقد أوجب الإسلام النظافة من الطعام ويكفى فيه غسل الأيدي ، وهذا نقاء للمرء وأطيب . قال – صلى الله عليه وسلم – : " بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده " (٢) .

1- رواه أنس .
2- رواه ابوداود .

وقد اقترنت نظافة الوضوء ونظافة الطعام فى هدى النبي– صلى الله عليه وسلم . فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ ، قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : حَبَّذَا الْمُتَخَلِّلُونَ ، قَالُوا وَمَا الْمُتَخَلِّلُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ ، قَالَ : الْمُتَخَلِّلُونَ بِالْوُضُوءِ ، وَالْمُتَخَلِّلُونَ مِنَ الطَّعَامِ ، أَمَّا تَخْلِيلُ الْوُضُوءِ : فَالْمَضْمَضَةُ ، وَالاسْتِنْشَاقُ ، وَبَيْنَ الأَصَابِعِ ، وَأَمَّا تَخْلِيلُ الطَّعَامِ : فَمِنَ الطَّعَامِ ، إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمَلَكَيْنِ مِنْ أَنْ يَرَيَا بَيْنَ أَسْنَانِ صَاحِبِهِمَا شَيْئاً وَهُو قَائِمٌ يُصَلِّي [(١)]. وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « تَسَوَّكُوا فَإِنَّ السِّوَاكَ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ وَمَا جَاءَنِى جِبْرِيلُ إِلاَّ أَوْصَانِى بِالسِّوَاكِ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَىَّ وَعَلَى أُمَّتِى وَلَوْلاَ أَنِّى أَخَافُ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى لَفَرَضْتُهُ لَهُمْ وَإِنِّى لأَسْتَاكُ حَتَّى لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أُحْفِىَ مَقَادِمَ فَمِى ».[(٢)] . وفى رواية أخرى : " لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه يترك على فيه قرآن أوحى " . وجل أمراض الأسنان واللثة من إهمال نظافتهما ، وبذلك يدرك المسلم مدى اهتمام الإسلام بالنظافة والتجميل والزينة .

وفى هذا المعنى يقول الحق –سبحانه وتعالى- ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [سورة الأعراف:٣١]. والمعنى : البسوا أفخر ثيابكم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف وكلوا واشربوا ولا تسرفوا فى الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس أوالمال إنه لا يحب المسرفين المتعدين حدود الله فيما أحل وحرم . ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ ﴾ [سورة الأعراف:٣٢] .

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعلم المسلمين أن يعنوا بهذه الأمور، وأن يلتزموها فى شئونهم الخاصة حتى يبدو المسلم فى سمته ، وملبسه ،

1- رواه أحمد .
2- رواه ابن ماجة .

وهيئته جميلاً مقبولاً لدى المسلمين . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "من كان له شعر فليكرمه " [١] . ودخل عليه رجل ثائر شعر الرأس فقال – صلى الله عليه وسلم –:"أما وجد هذا ما يسكن به شعره ؟ " . وعن أبى قتادة قلت : يا رسول الله : إن لي جمة أفأرجلها ؟ قال : نعم ، وأكرمها .

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين ، من أجل قول رسول الله– صلى الله عليه وسلم – فتسريح الرأس سِمَةً حسنة ، وتعطيره كذلك . ورأى النبي – صلى الله عليه وسلم – رجلاً عليه ثياب وسخة . فقال : " أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه " ؟ !! .

فإن الأناقة ، والتجمل ، والزينة ، والعطر من تعاليم الإسلام والأخلاق القرآنية ، والإرشادات النبوية شريطة أن يكون ذلك فى إسراف ، ولا تبذير . قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ». قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَنَةً . قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ ». [٢] وفى رواية أخرى . عَنْ ثَابِتِ بن قَيْسِ بن شَمَّاسٍ الأَنْصَارِيِّ ، قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} فَذَكَرَ الْكِبْرَ فَعَظَّمَهُ ، فَبَكَى ثَابِتُ بن قَيْسٍ ، فَقَالَ لَهُ نَبِيُّ اللَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَا يُبْكِيكَ ؟ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنِّي أُحِبُّ الْجَمَالَ ، حَتَّى إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْسُنَ شِرَاكُ نَعْلِي ، قَالَ : فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ الْكِبْرُ بِأَنْ تُحْسِنَ رَاحِلَتَكَ ، ورَحْلَكَ ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ، وَغَمَصَ النَّاسَ .

1 - رواه ابوداود .
2- رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه : أن رجلاً أتى النبي - صلى اللّه عليه وسلم- فقال : يا رسول اللّه إني رجل حبب إلَيَّ الجمال وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعلي أفمن الكبر هذا ؟ .

قال – صلى اللّه عليه وسلم - : لا ولكن من الكبر من بطر الحق وغمُط الناس . وكان – صلى اللّه عليه وسلم - : إذا رأى مسلماً يهمل تجمل نفسه ، وتنسيق هيئته نهاه عن ذلك ، وأمره أن يرتدى ألبسة أفضل .

وبعض الذين يدعون التدين أو التصوف يحسبون أن ارتداء الملابس الوسخة والمرقعة لوناً من ألوان العبادة والزهد ، وهذا جهل فاضح بل جهالة جهلاء، وأمية فى الدين نكراء ، فلقد كان النبي – صلى اللّه عليه وسلم - جميلاً نظيفاً حسن الهيئة وكان أعبد الناس وأخشى الناس ، وأتقى الناس لربه – سبحانه وتعالى - . فعن البراء – رضي اللّه عنه - قال : كان رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم - : مربوعاً ، وقد رأيته فى حلة حمراء ما رأيت شيئاً أحسن منه قط " (١) .

وعن سعد بن أبي وقاص - رضي اللّه عنه-: أن النبي - صلى اللّه عليه وسلم - قال: " إن اللّه- تعالى- طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا بيوتكم، ولا تَشَبَّهوا باليهود التي تجمع الأَكْباءَ في دورها" (٢) .

وإماطة الأذى عن الطريق لون من ألوان النظافة وشعبة من شعب الإيمان، والأذى هو: شَوّك أو حجارة ، أو نجاسة ، أوما إلى ذلك مما يؤذى المسلم ويعوق الطريق وينشر الروائح الكريهة . إن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية ، حيث إن الإسلام يتطلب أجساماً تجرى فيها دماء العافية ، ويمتلئ أصحابها نشاطاً وقوةً ، وصحةً وفتوةً . والجسم السليم له

1- رواه مسلم .
2- رواه الترمذى .

كبير الأثر فى سلامة التفكير، وفى تفاؤل الإنسان مع الحياة والناس ، وذلك قوة للأمة وعزة للدين . وقال حكيم : " العقل السليم فى الجسم السليم " . ومن هنا حارب الإسلام " المرض " ووضع العوائق أمام جراثمه حتى لا ينتشر فينتشر بانتشاره الضعف والتراخي والتشاؤم .

ويقول حكيم : " الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى " . ومما لا ريب فيه إذا كان شباب الأمة صحيحاً قوى الأبدان يستطيع إذا نادى منادى الجهاد أن يلبى للذود عن الأرض ، والدفاع عن العرض ،وبسواعدهم القوية ، وأبدانهم الفتية تعيش الأمة فى عزة وكرامة ، وسؤدة ومجد.

وأمرنا الإسلام للحفاظ على الصحة بالتداوى فقال – صلى الله عليه وسلم – : " ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء " (١) . وقال – عليه الصلاة والسلام – : " إن لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله " (٢) . قال تعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الشعراء: ٨٠]. وللحفاظ على الصحة ، وعدم انتشار الأوبئة ينبه النبي – صلى الله عليه وسلم – على ذلك فعن جابر – رضي الله عنه – عن رسول الله– صلى الله عليه وسلم –: " أنه نهى أن يُبَالّ فى الماء الراكد " (٣) . وعنه أيضا أنه – عليه الصلاة والسلام – : " نهى عن أن يبال فى الماء الجاري " (٤) . وعن معاذ – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أتقوا الملاعن الثلاث البراز فى الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل " (٥) . والمعنى : أن هذه الأمور تجلب على فاعلها اللَّعنة ، والذى

1- رواه البخاري .
2- رواه مسلم .
3- رواه مسلم .
4- رواه الطبراني .
5- رواه ابوداود .

يفعل هذه الأشياء إنسان ساقط المروءة . وقال – عليه الصلاة والسلام – : " من آذى المسلمين فى طرقهم وجبت عليه لعنتهم " (١) .

وفى رواية أُخرى : " من غسل سخيمته على طريق من طرق المسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين "(٢) وهذه الأمور المنهي عنها هي سبب انتشار الأمراض ، والأوبئة لدينا نحن المسلمين ، إذ أن الناس استخفوا بهذه الأمور واستهانوا بها فجرَّت عليهم الأمراض المتوطنة . وقد وضع الإسلام قواعد الحجر الصِّحي ،فإذا ظهر مرض في بلد ما من البلاد وضرب حوله حصاراً شديداً ، فمنع الدخول فيه والخروج منه . لمحاصرة المرض حتى لا ينتشر أو يعم جميع البلاد .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :- " إذا سمعتم بالطاعون ظهر بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها تخرجوا منها " (٣) . وهنا تظهر عظمة الإسلام حيث أنه اكتشف بل نبه على الحجر الصِّحي ، وأرشد إليه العالم كلُّه فقد عرفه الإسلام قبل أطباء الكرة الأرضية . نعم : إنه الإسلام العظيم . وقد واسى الإسلام سكان البلد الموبوء ، وحبب إليهم المكث فيه ولهذا قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ما من عبد يكون في بلد فيه الطاعون فيمكث فيه لا يخرج صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد " (٤) . إن الأخذ بالأسباب حق ، وهوالقدر كما يقول سيدنا " عمر " – رضي الله عنه – وقد شرع الإسلام التحرز من العدوى . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا يوردن ممرض على مصح " (٥) .

---

1 - رواه الطبراني .
2 - رواه البيهقي.
3 - رواه البخاري .
4 - رواه البخاري .
5 - رواه البخاري .

وقال – عليه الصلاة والسلام – : " فِرَّ من المجزوم فِرَارَك من الأسد " (١) .
ولو أن كل عدوى تصيب لهلك من فى الأرض جميعاً ، فهناك كما يقول الأطباء . ظروف معقدة للإصابة عن طريق العدوى ، وهذا معنى الحديث : " لا عدوى ، ولا طيرة " . والمعنى لا عدوى موجودة إلا بإذن الله . وليس النفي منصباً على إنكار حقيقة العدوى لأن آخر الحديث يمنع ذلك وهو قول الرسول – صلى الله عليه وسلم– بعد ذلك مباشرة : " وفر من المجزوم فرارك من الأسد " . أجل : هذا هو الإسلام بعظمته يحرص كل الحرص على سلامة الإنسان ، والأخذ بيده إلى وسائل وأسباب النظافة والتجمل والصحة . (٢)

1 - رواه البخاري .
2- صفوة التفاسير جـ ١ ، وص ٤٤٣.

الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن

كل مفقود عسى أن تسترجعه ، إلا الوقت ، فهو إن ضاع لم يتعلق بعودته أمل ، ولذلك كان الوقت أنفس ما يملكه الإنسان ، وكان على العاقل أن لمستقبل أيامه استقبال الضنين للثروة الرائعة ، ويجتهد أن يضع كل شيء مهما ضَـؤُلَ ، موضعه اللائق به .

وفى الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة يونس:٤٥]. والمعنى : واذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين للحساب كأنهم ما أقاموا فى الدنيا إلا ساعة من النهار، وذلك لهول ما يرون من أهوال والفظائع التى يشيب لها الولدان يوم تقوم الساعة ، ويقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ، وفى ذلك اليوم يعرف بعضهم بعضا كما كانوا فى الدنيا ، وهوتعارف توبيخ وتهكم وسخرية ، واستهزاء وافتضاح ، يقول الواحد منهم للآخر : " أنت أغويتني وَأَضْلَّلتني " ، وليس تعارفهم فى ذلك اليوم تعارف محبة ومودة . وبهذا يكون هؤلاء الظالمون قد خسروا حقاً ، حيث إنهم كذبوا بالبعث والنشور ويوم الجزاء ، وما كانوا موفقين للخير فى هذه الحياة الدنيا ، ما كانوا مهتدين .

ويقول صاحب اللطائف : " الأيامُ والشهور، والأعوام والدهور بعد مُضيها في حُكْمِ اللَّحظة لمن تفكَّرَ فيها ، ومتى يكون لها أثر بعد تقضيها؟ والآتي من الوقت قريب ، وكَأَنَّ قَدْرَا الماضي من الدهر لم يُعْهَدْ .

يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " يقول تعالى مُذكِّراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصات القيامة : كأنهم يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا { إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ } كما قال تعالى: { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً

أَوْ ضُحَاهَا﴾، وقــال تعــالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة طه:١٠٢:١٠٤]وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الروم:٥٥:٥٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كما قال: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [سورة المؤمنون:١١٢:١١٤].

وقوله: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة المؤمنون:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ﴾ [سورة المعارج:١٠:١٤]. وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هي الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرّق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

ويقول اللّٰه - تعالى – أيضا فى هذا المعنى وهو" الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن ": ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة طه:١٠٣:١٠٤]. والمعنى : يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، ونُحْشر المجرمين إلى أرض المحشر ، وهم زرق العيون ، سود الوجوه . يقول القرطبي : " تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم

وسواد وجوههم " ، يتهامسون بينهم ، ويسرعون بعضهم إلى بعض قائلين : " ما مكثتم فى الدنيا إلا عشر ليالٍ " .

يقول أبوالسعود فى تفسيره : " استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأهوال . " ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا " . أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم ، إذ يقول أعقلهم ، وأعدلهم قولاً : ما لبثتم إلا يوماً واحداً . ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى ظلاله : " وهكذا يخيم الجلال على الموقف كله ، وتغمر الساحة التي لا يحدها البصر رهبةً وصمتاً وخشوعاً . فالكلام همس . والسؤال تخافت . والخشوع ضافٍ . والوجوه عانية . وجلال الحي القيوم يغمر النفوس بالجلال الرزين . ولا شفاعة إلا لمن ارتضى الله قوله . والعلم كله لله . وهم لا يحيطون به علماً . والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة . والذين آمنوا مطمئنون لا يخشون ظلماً في الحساب ولا هضماً لما عملوا من صالحات . إنه الجلال ، يغمر الجو كله ويغشاه ، في حضرة الرحمن – سبحانه وتعالى – .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة النازعات:٤٦]. والمعنى : كأن هؤلاء الكفار يوم يشاهدون القيامة وما فيها من الأهوال ، لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعةً من نهار ، بمقدار عشية أوضحاها . يقول الإمام " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " أي: إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم . قال ابن عباس: { ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} أما عَشِيَّة : فما بين الظهر إلى غروب الشمس، { أَوْ ضُحَاهَا} ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. وقال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

ويقول المراغى فى تفسيره : " إنهم ظنوا لم يلبثوا إلا عشية يوم أو ضحى تلك العشية ، وتقول العرب : " آتيك العشية لو غداتها " ، وآتيك الغداة أوعشيتها ،

والمراد أنهم يستقصرون مدة لبثهم ، ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أوأوله". إن هذا الإحساس على ما به يخْدعُ الذين توهموا الخلود فى الأرض ، وربطوا مصيرهم بترابها ، وهوإحساس صادق إذا قيست أيام الدنيا بأيام الآخرة . ولكنه إحساس مخدوع مضلل لمن مرت به الأصباح ، والأمسيات ، وكرت عليه الشهوروالدهور، وغدا ، وراح ، وتعب ، واستراح ، ومع ذلك فهوفى غفلةٍ عن يومه وغده ، ظل يعبث ويسترسل فى عبثه ، حتى إذا استرخت أجفانه على عينيه ، ودخل ظلام الموت ، تيقظ بعنف ! وهيهات !! لقد صحا بعد فوات الوقت .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [سورة المجادلة:٦]. والمعنى : واذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم فى صعيد واحد فيخبرهم بما ارتكبوا فى الدنيا من جرائم وآثام فقد ضبطه الله وحفظه عليهم فى صحائف أعمالهم ، بينما نسوا تلك الجرائم وذلك لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء وهو– سبحانه وتعالى – مُطْلع لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء قال تعالى : " يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى " . ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [سورة غافر:١٩]. ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾ [سورة الرعد:١٠].

ويقول صاحب اللطائف : " إذا حُوسِبَ أحدٌ في القيامة على عمله تصورله ما فعله وتذكَّره ، حتى كأنه قائمٌ في تلك الحالة عن بِسَاط الزَّلَّةِ ، فيقع عليه من الخجل والندَم ما يَنسى في جَنبِه كُلَّ عقوبة . فسبيلُ المسلم ألا يحومَ حول مخالفة أمر مولاه ، فإنْ جَرَى المقدورُ ووقَعَ في هيئة التقصير فلتكن زلته على بَالٍ ، وليتضرع إلى الله بحُسْن الابتهال .

ويقول المراغي فى تفسيره فى معنى هذه الآية : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة المجادلة:٦]. أي واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيراً لهم وخزياً على رؤوس الأشهاد والله قد حفظه وضبطه وهم قد نسوه ، والله شاهد على كل شيء فلا يغيب عنه شيء ، ولا ينسى شيئا ، وفى هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم ، والتنديم ، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب إنما كان من جزاء أعمالهم ، وقبيح أفعالهم .

إن الإسلام دين يعرف قيمة الوقت ، ويقدر خطورة الزمن ويؤكد تلك الحكمة القائلة : " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك " . ويجعل من دلائل الإيمان وأمارات التقى أن يعي المسلم هذه الحقيقة ويسير على هُدَاها .

يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة يونس:٦]. ويعد الذين يزهلون عن غدهم ، المشغولون فى حاضرهم ، المفتونون ببهرج الحياة الدنيا الكاذب ، وزخرفها الخداع فهم قوم خاسرون سفهاء .

يقول الحق – سبحانه وتعالى - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة يونس:٨:٧]. ونرى الإسلام يوزع العبادات الكبرى على أجزاء اليوم ، وفصول العام ، فالصلوات الخمس تنتظم اليوم كله ، وقد نزل سيدنا جبريل - عليه السلام – من عند الله ليرسم أوائل الأوقات وأواخرها ليكون من ذلك نظام محكم ودقيق يرتب الحياة الإسلامية ، ويقيسها بالدقائق من مطلع الفجر إلى غروب الشمس .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الروم:١٨]. إن النظر القاصر يعرف من الزمن آثاره المحدودة ، ومظاهره المحسوسة .

يقول الشاعر :

أَشَابَ الصّغيرَ وَأَفْنَى الكَبيرَ ... كَرُّ الغَدَاةِ وَمَرُّ العَشِي

ويقول آخر :

وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ امْرِيٍ ... وَسِرُّ الثَّلاَثَةِ غَيْرُ الخَفِي

والزمن فرصة لإيقاظ الأذكياء وذلك لفعل الخير ، وإسداء المعروف واغتنام الوقت ، والإفادة منه فى تقديم كل معروف ، قال – تبارك وتعالى – : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [سورة الفرقان:٦١:٦٢]. والإسلام ينظر إلى قيمة الوقت فى كثير من أوامره ونواهيه فعندما جعل الإعراض عن اللَّغومن معالم الإيمان كان حكيماً فى محاربة طوائف المتبطلين الذين ينادى بعضهم بعضا : " تعالى نقتل الوقت بشيء من التسلية ، وما درى الحمقى أن هذا لعب بالعمر ، وأن قَتْلَّ الوقت على هذا النحو إهلاك للفرد ، وإضاعة للجماعة .

ومن الحِكَم التى تغيب عن بال الجماهير : " الواجبات أكثر من الأوقات ، " الزمن لا يقف محايداً ، فهو إما صديق ودود ، أو عدو لدود " . وكلمات " الحسن البصري " – رحمه الله – : " ما من يوم ينشق فجره إل نادى منادٍ من قبل الحق : " يا ابن آدم ، أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود منى بعمل صالح فأنى لا أعود إلى يوم القيامة " .

وهذه الحِكَمْ تنبع من الحياة الأولى للحياة الكبرى ، يعنى من الدنيا إلى الآخرة . ومن فضل الله – عزوجل – أن يوفق المسلم لإستغلال ساعات عمره ،

قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة القصص:٧٣]. ومما يؤسف ويؤسى أن الناس يضيعون أوقاتهم سدى ، بل يسطون على أوقات غيرهم ، قال – صلى الله عليه وسلم – :" نعمتان مغبون كثير فيهما من الناس الصحة والفراغ " (١) . ويوجهنا القرآن الكريم إلى التحلي بهذا الخلق وهو استغلال الوقت وعدم إضاعته سُدى ، وحثه على مداومة العمل وإن كان قليلا ، وكراهيته للكثير المتقطع . وفى الحديث : " عَنْ أَبِى سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – أَنَّ النَّبِىَّ – صلى الله عليه وسلم – كَانَ يَحْتَصِرُ حَصِيراً بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّى ، وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَثُوبُونَ إِلَى النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم – فَيُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ حَتَّى كَثُرُوا فَأَقْبَلَ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا ، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ » (٢) . ومن محافظة الإسلام على الوقت ، حثه على التبكير ، فإن الحرص على الانتفاع من أول الوقت يستتبع الرغبة القوية فى ألا يضيع سائره سدى ، واليوم الاسلامى يبدأ بصلاة الفجر ويكره الإسلام السهر الذى يؤخر صلاة الصبح عن وقتها ، وفى الحديث : " اللهم بارك لأمتي فى بكورها"(٣) . وإنه لمن الغفلة أن يألف أقوام النوم حتى وقت الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون فى النوم على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون فى وسائل معاشهم ، ومصالح حصادهم .

وروى عن فاطمة بنت محمد – صلى الله عليه وسلم – قالت : " مَر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجعة متصبحة ، فحركني برجله ، ثم قال: « يا بنيةِ قومي اشهدي رزق ربك ، ولا تكوني من الغافلين ، فإن الله يقسم أرزاق

1- رواه البخارى ومسلم .
2- رواه البخارى .
3- رواه ابوداود .

الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس »[1] . والناس ينظرون إلى الأحداث، ويذهلون عن مرسلها ، ويذوقون السراء والضراء ويجهلون من يذيقهم طعومها ، فإذا ضاقوا ذرعاً بأمر ما ، لعنوا الأيام وما تفد به ، وهذا ضرب من الجهل بالله ، والغفلة عن أقداره فى عباده .

ومن الاتعاظ بالزمن دراسة التاريخ العام ، وتتبع آيات الله فى الآفاق وتدبر أحوال الأمم ، كيف تقوم ؟ وكيف تنهار؟ وكيف تنقلب بين ازدهار وانحدار؟. والله – عز وجل – يطلب من الناس أن يلتفتوا إلى هذه الأدوار المتعاقبة ، وأن يكون لهم وعى حقيقي يوجههم إلى الانتفاع بها . قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الحج:٤٦].

فمن أخلاق القرآن الكريم الانتفاع بالوقت ، والاتعاظ بالزمن ، من أجل ذلك ندب الإسلام أبناءه للرحلات ، والسياحة ، وحبب إليهم الضرب فى مناكل الأرض ، لا للَّهو واللَّعب ، بل للعلم والإفادة واستقصاء العِبَرّ عن الأحياء والهامدين . قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٣٨].

ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة غافر:٢١]. وكذلك يدعون القرآن الكريم إلى دراسة الحضارات البائدة ، وعلل فنائها ، حتى يتجنب الأخلاق مواطن الذلل ، التى هوت بالأولين ، وكم تكشف مطالعة التواريخ من غرائب .

---

1 - رواه البيهقى .

قال الشاعر :

والليـــالي مـــن الزمـــان حبـــالى مـــثقلات يلـــدن كـــل عجيـــب

إن الزمن آية تعجز العقول عن كشفها ، وما نعرفه إلا بما يخلفه فى المادة من آثار ، ولعل سر الخلود والفناء مطوي لا يعرفه إلا المحيط بظواهره وخوافيه . يقول –سبحانه وتعالى – : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٧٩:٨٠]. والذى يجب أن نعقله ، أن حياتنا هذه ليست سدى وأن الله أجل من أن يجعلها كذلك . وإذا انتفعنا بمرور الزمن على خير وجه سجلنا لأنفسنا خلودا لا يناوشه الزمن بِهَـرِمٍ ولاَ بِلــى ، عند الرفيق الأعلى ، هذه أخلاق القرآن الكريم ، والسنة المطهرة " الانتفاع بالوقت والاتعاظ بالزمن " . (١)

1 - خلق المسلم للشيخ محمد الغزالي بتصرف .
- صفوة التفاسير ، ص ٥٨٦ بتصرف ، جـ ٣ ، ص ٣٣٧ ، ص ٥١٧ .
- لطائف الإشارات ، للقشيرى جـ ٢ ص ٩٨ ، جـ ٣ ، ص ٥٥٠ وما بعدها .
- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤١٩ .
- تفسير القرطبي جـ ١١ ، ص ٢٤٤.
- تفسير ابى السعود جـ ٣ ، ص ٣٢٤ .
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٤ ، ص ٢٣٥٢ وما بعدها . ط . دار الشروق.
- تفسير المراغى جـ ١٠ ، ص ١٠ ، ٣٧ .

التقوى

من الأخلاق القرآنية التى وجهنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قول الله – عز وجل – : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢]. والمعنى : إن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد – صلى الله عليك وسلم – هو الكتاب الذى لا يعادله كتاب ، وذلك الكتاب بلا شك فى أنه من عند الله ، وذلك لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو هادٍ للمؤمنين المتقين الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، ويقول " الحسن البصري " – رحمه الله – : " اتقوا ما حرم الله عليهم ، أدوا ما افترض عليهم " ثم بين صفات المتقين بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:٦].

وفى المعنى ذاته يقول تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [سورة البقرة:٤٨]. والمعنى : خافوا ذلك اليوم الرهيب الذى لا تقضى فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق ، ولا تُقْبَل شفاعة فى نفس كافرة بالله أبدا ولا يقبل منها فداء وليس من يمنعهم أو ينجيهم من عذاب الله .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [سورة البقرة:٤٨]. والمعنى : خافوا ذلك اليوم الرهيب ، الذى لا تغنى فيه نفس عن نفس ، ولا تدفع عنها شيئاً من عذاب الله ، لأن كل نفس بما كسبت رهينة . ورهينة فعيل بمعنى

مفعول أي مرهونة بعملها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا يقبل منها فداء، ولا تفيدها شفاعة أحد لأنها كفرت بالله، ولا يدفع عنهم أحد عذاب الله ولا يحيدهم من سطوة عقابه.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]. والمعنى: إن أهل هذه الأوصاف والتى وردت فى هذه الآية الكريمة هم الصادقون فى إيمانهم وهم الكاملون فى التقوى، وفى الآية ثناء على الأبرار، وإيحاء إلى ما يلاقونه من اطمئنان وخيرات حسان. وقد وردت كثرة كاثرة من الآيات التى توجهنا إلى الأخلاق فى كتابه العزيز. وتحمل نفس المعنى، وقد رأينا سرد هذه الآيات مكتفين بتفسير بعضها حيث إننا رأينا أن الآيات يعانق بعضها بعضا، ويأخذ بعضها بحجز بعض، ومنها قول الله – عز وجل –: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٧٩]

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٩٧].

وقوله – سبحانه وتعالى –: ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٠٣].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾﴾ [سورة البقرة:٢٣٣].

وقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [سورة البقرة:٢٨١].

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [سورة آل عمران:١٥]. والمعنى : قل لقومك يا محمد – صلى الله عليك وسلم – وقل لغيرهم : أؤخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين والذى أومأ إليه القرآن الكريم فى قوله : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤].

وجاء الكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب ، وتشويقاً إليه ، وقوله " خير " يشعر بأن تلك الشهوات خير فى ذاتها ، ولا ريب فى ذلك إذ هى من أجل النعم التى أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر منها كما يعرض فى سائر نعم الله على عباده مثل " الحواس ، والعقول " وغيرها فما مثل المسرف فى حب النساء حتى امرأته حق غيرها ، أو يهمل لأجلها تربية ولده إلا من يستعمل عقله فى استنباط " الحيل " لينتبذ حقوق الناس ويؤذيهم ، فسلوك الناس فى الانتفاع بالنعم لا يدل على أنها هى فى ذاتها شر ، ولا كون حبها شراً مع القصد والاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة الإسلامية . ثم أجاب عن هذا الاستفهام

فقـــال : ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [سـورة آل عمـران:١٥]. والمعنى : للذين أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه نوعان من الجزاء :

أحدهما : **جسماني** : وهو الجنات ، وما فيها من النعيم والخيرات والأزواج المبرأة من العيوب التى توجد فى نساء الدنيا خَلْقاً وَخُلقاً .

ثانيهمـا : **روحـاني وعقلـي** : وهو رضوان الله الذى لا يشوبه سخط ، ولا يعقبه غضب ، وهو أعظم اللَّذات كلها فى الآخرة عند المتقين .

وفـى الآيـة إيمـاء إلى أن أهـل الجنـة مراتـب وطبقـات كمـا نـرى ذلك فـى الـدنيا فمنهم مـن لا يفقـه لرضـوان الله معنـى ، ولا يكـون ذلـك باعثـاً لـه على فعل الخير، وترك الـشر، وإنما يفقه اللذات الحسية التى جربها فى الدنيا ففى مثلها يرغب . ومنهم من ارتقى إدراكه ، وعظم قربه من ربه ، فيتمنى رضاه ، ويجعله الغاية القصوى ، والسعادة التى ليس وراءها سعادة .

وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى- : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [سورة آل عمـران:١٦] . وقوله تعـــالى: ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [سورة آل عمـران:١٧] . وقوله – سبحانه وتعالى - : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة آل عمـران:٧٦]. وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٠٢]. والمعنى : يجب عليكم أيها المؤمنون تقواه حقاً ، وذلك بأن تقومـوا بالواجبـات ، وتجتنبـوا المنهيـات ، ومثلـها قولـه تعـالى : " **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** " . يعنى : بالغوا فى تقواه جهد المستطاع .

وعن ابن مسعود – رضي اللّه عنه – :" تقوى الله هى : هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا يُنْسَى، ويُشْكَرَ فلا يُكْفَر. " . وعن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – قال : " "اتقوا اللّه حق تقاته"، قال:"حق تقاته"، أن يجاهدوا في اللّه حق جهاده، ولا يأخذهم في اللّه لومةُ لائم، ويقوموا للّه بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، وأمهاتهم ، ولا تموتن إلا ونفوسكم مخلصةً للّه ، ولا يجعلون شركاء لسواه . يعنى : لا تكونن على حال سوى الإسلام إذا أدرككم الموت والمراد : استمروا على الإسلام ، وحافظوا على أداء الواجبات ، وترك المنهيات حتى تأتيكم المنية .

ويتحدث القرآن الكريم عن الأخلاق ، ويعد التقوى خُلُقاً من أخلاق القرآن الكريم فيقول تعالى فى ذات المعنى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سورة النساء:١]. والمعنى : احذروا عصيان من رَبّاكم بإحسانه ، وتفضل عليكم بجوده وإنعامه ، وجعلكم أقرباء يجمعكم نسب واحد ، وأصل واحد . وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا " آدم " – عليه السلام – وهم لم يأخذوا هذا من نفى الآية بل أخذوها تسليما ، وهو أن " آدم " أبو البشر فإن ذلك من المسلمات التى لا يرتاب فيها أحد ، قال – صلى اللّه عليه وسلم – : " كلكم لآدم وآدم من تراب " . وقال تعالى : " يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ " .

ويقول القفال : " هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه في الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك . فلما آتاهما اللّه ولداً صالحاً سوياً ، جعل الزوج والزوجة للّه شركاء فيما آتاهما ، لأنهم تارةً ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هوقول الطبائعيين ، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين ، وتارة إلى الأصنام

والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام . أو أن الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وهم " آل قصي " ، والمراد من قوله : هوالذى خلقكم من نفس " قصي " وَجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سَمْيّا أولادهما الأربعة بعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد قصي ، وعبد اللات ، وجعل الضمير في { يُشْرِكُونَ } لهما ولأعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك .

ويقول بعض العلماء : أيهم الله تعالى أمر النفس التى خلق الناس منها ، فلندعها على إيهامها ، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أيّاً كان ذلك غير مخالف لكتابنا ، كما هو مخالف للتوراة التى نصت صراحةً على أن آدم أبو البشر ، فحمل ذلك الناس على الطعن فى كونها من عند الله .

ويقول الأستاذ الإمام " محمد عبده " : " إن ظاهرة الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة " آدم " لوجهين :

أولاً : البحث العلمي والتاريخ المعاصر لذلك .

ثانيا : إنه قال : " رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً " ولم يقل : " الرجال والنساء " . ولكن ليس فى القرآن الكريم ما ينفى هذا الاعتقاد ، ولا ما يثبته إثباتاً قاطعاً لا يحتمل التأويل ، وما جاء من مخاطبة الناس بقوله : " يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ " . لا يُعَد نصا فى كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفى فى صحة هذا الخطب أن يكون من وجه اليهم فى زمن التنزيل من أولاد آدم . ونحن نرى أن المراد فى جميع ما ورد من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية يدل على أن المراد بقوله : "يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ" . جنس البشر ، وأن جميعهم ينتسبون إلى آدم ، يدل على ذلك ما جاء فى قوله – صلى الله عليه وسلم - : " ككلكم لآدم ، وآدم خُلِق من تراب " . " لا فضل على عربي ولا عجمي ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى " .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - فى نفس المعنى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة النساء:٣١]. والمعنى : إن تتركوا جانبا كبائر ما ينهاكم اللّٰه عن ارتكابه من الذنوب والآثام يمحوعنكم صغائرها ، فلا نؤاخذكم بها . وقد اختلف العلماء فى عدد الكبائر فقيل هى " سبع " . وذلك لما ورد فى الصحيحين : عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا هُنَّ قَالَ « الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ» وفى رواية أخرى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِى بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ – رضي الله عنه – قَالَ : قَالَ النَّبِىُّ – صلى الله عليه وسلم – : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ » . ثَلاَثاً . قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ « الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » . وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئاً فَقَالَ « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ» . قَالَ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ . وفيها أيضا من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو–رضي الله عنهما– قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – : « إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » . قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ« يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ » .

والأحاديث الصحيحة مختلفة فى عددها ، ومجموعها يزيد على سبع . ومن ثم قال ابن عباس –رضي اللّٰه عنهما– : " هى إلى سبعين أقرب إذ لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار. ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب أو ثورة شهوة وصاحبه متمكن من دينه يخاف اللّٰه ولا يستحل محارمه فهو من السيئات التى يكفرها اللّٰه تعالى . إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاوناً بالدين ، إذ هو بعد اجتراحه يندم ، ويتألم ويتوب ويرجع إلى اللّٰه تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله فهو إلى ذلك أهل إلى أن يتوب اللّٰه عليه ويكفر عنه ، وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون

بالأمر، وعدم المبالاة بنظر الله إليه ، ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيراً فى صورته أو فى ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو" حَبّة لمن أعتاده ، والهمز و اللَّمز لمن تعوده كل ذلك كبيرة ولا ريب فيه ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يذكر فى كل مقام ما تمس إليه الحاجة ، ولم يرد الحصر والتحديد ، ونحن إلى هذا أميل .

ويقول بعض العلماء : " الكبيرة هى كل ذنب رتب عليه الشارع حداً ، أو صرح فيه بوعيد ، ثم يقول – سبحانه وتعالى – : " وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا " . يعنى : وندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والعرب تقول : " أرض كريمة ، وأارض مكرمة " . يعنى طيبة جيدة النبات ، قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٥٧:٥٨].

ويمضى القرآن الكريم فى الحث على الأخلاق الفاضلة : فيقول تعالى : ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة النساء:١٢٨].

وفى ذات المعنى : يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ [سورة النساء:١٣١]. ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة المائدة:٣٥]. والمعنى : يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه ، وهى إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف على المحارم ، وترك المنهيات، وقد قال بعدها: { وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ } قال سفيان الثوري، حدثنا أبي، عن طلحة،

عن عطاء، عن ابن عباس: أي القربة. وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن، وقتادة، وعبد الله بن كثير، والسدي ، وابن زيد.

وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً : علم على أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ، وقد ثبت في صحيح البخاري، من طريق محمد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " من قال حين يسمع النداء : اللَّهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة ".

وفي صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عَليّ، فإنه من صلى عَليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجوأن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة." و حديث آخر: قال الإمام أحمد عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم – قال : " إذا صليتم عَليّ فَسَلُوا لي الوسيلة ". قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ . قال: " أعْلَى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رَجُلٌ واحد وأرجو أن أكون أنا هو".

وعن أبي هريرة عنه قال : " صلوا عليَّ صلاتكم ، وسَلُوا الله لي الوسيلة ". فسألوه وأخبرهم : " أن الوسيلة درجة في الجنة ، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكونه ". وعن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " سلوا الله لي الوسيلة ، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا - أو: شفيعاً - يوم القيامة ".

وعن موسى بن وَرْدان : أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقها درجة ، فسَلُوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه ". عن علي بن الحسين الأزْدِي - مولى سالم بن ثوْبان - قال: سمعت علي بن أبي طالب ينادي على منبر الكوفة : يا أيها الناس، إن في الجنة لؤلؤتين : إحداهما بيضاء ، والأخرى صفراء ، أما الصفراء فإنها إلى بُطْنان العرش ، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة ، كل بيت منها ثلاثة أميال ، وغرفها وأبوابها وأسرتها وكأنها من عرق واحد ، واسمها الوسيلة ، هي لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وأهل بيته ، والصفراء فيها مثل ذلك ، هي لإبراهيم - عليه السلام - وأهل بيته.

وقوله: { وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تَبِيد ولا تَحُول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يَنعَم لا ييأس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

وفى ذات المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [سورة المائدة:٦٥]. وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المائدة:٨٨] وقول الحق – عز وجل - : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [سورة المائدة:٩٣]. وقال تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ

وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ [سورة المائـدة:٩٦]. وقـال – سبحـانه وتعـالى – : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ [سورة المائدة:١٠٠].

ويمضى القرآن الكريم فى الحث على الأخلاق الفاضلة فيقول – سبحانه وتعـــالى – ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ [ســورة الأنعــام:٦٩]. والمعنـى : إنكـم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه . وقوله: { وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ } أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدتهم، وتخلصوا من إثمهم . قال ابن أبي حاتم قوله: { وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ } قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم . وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم، فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية، وهي قوله: { إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ } قاله مجاهد، والسُّدِّي . وعلى قولهم ، يكون قوله تعالى : { وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ لعلهم يتقون ذلك، ولا يعودون إليه.

ويتحدث القرآن الكريم عن الأخلاق فيقول : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ [ســورة الأعــراف:٣٥]. والمعنى : { فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ } شرط وما بعده جوابه وهو جواب الأول أي وأصلح منكم ما بيني وبينه { فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون ولا يلحقهم رعب ولا فزع وقيل : قد يلحقهم أهوال يوم القيامة ولكن مآلهم الأمن ، وعدم الخوف من أهوال القيامة ، وذلك بفضل الله ورحمته .

وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف:٩٦]. والمعنى : ولو أن أهل القرى آمنوا وصدقوا واتقوا الشرك لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض يعني المطر والنبات ، وهذا في أقوام على الخصوص جرى ذكرهم إذ قد يمتحن المؤمنون بضيق العيش ويكون تكفيراً لذنوبهم ألا ترى أنه أخبر عن " نوح " - عليه السلام - إذ قال لقومه ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [سورة نوح:١١]. وعن " هود " - عليه السلام - { ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا } . فوعدهم المطر والخصب على التخصيص يدل عليه { وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } أي كذبوا الرسل والمؤمنون صدقوا ولم يكذبوا ، ويقال للمدينة قرية لاجتماع الناس فيها، مأخوذ من قربة الماء إذا جمعته .

ونحن نرى أن هذه الآية عامة فى القرى والحضر فى هذا العصر، وفى كل زمان ومكان فالمؤمنون لو آمنوا بربهم حق الإيمان ، وصدقوا بينهم حق التصديق ، واتقوا الله – عزوجل - وذلك بالنأي عن المناكر، واقتراف الآثام ، وارتكاب الذنوب ، واجتراح السيئات . وراقبوا الله فى السر والعلن لرزقهم الله كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا ، يقول الشاعر :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد

ويقول أبو العتاهية :

وإذا تناسبت الرجال فما أرى ... نسباً يقاس بصالح الأعمال
وإذا اتقى الله امرؤ وأطاعه ... فبداه بين مكارم ومعال
وعلى النفس إذا ترسخ فى التقوى ... تاجان تاج سكينة وجلال

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة الأعراف:١٢٨]. وقال – سبحانه وتعالى – : ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [سورة الأعراف:١٥٦].

وفى ذات المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [سورة الأنفال:١] . والمعنى : أن التقوى خير غنيمة فهى أفضل من غنائم المال ، وغيره من متاع الحياة الدنيا .

إن تقوى ربنا خير نفل … وبإذن الله ريثي والعجل .

والنفل : اليمين ، ومنه الحديث " فتبرئكم يهود بنفل خمسين منهم ". والنفل الانتفاء ، ومنه الحديث " فانتفل من ولدها " . والنفل – بفتح الفاء –: نبت معروف . والنفل – بإسكان الفاء – : الزيادة على الواجب ، وهوالتطوع . وولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد . والغنيمة نافلة ، لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرها. قال – صلى الله عليه وسلم – : " فضلت على الأنبياء بست – وفيها – وأحلت لي الغنائم ". والأنفال : الغنائم أنفسها.

قال عنترة بن شداد :

إنا إذا احمر الوغى نروي القنا … ونعف عند مقاسم الأنفال

والمراد بالأنفال هنا الغنائم .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الرعد:٣٥]. والمعنى: فهوا لمتاع والاسترواح ومشهد

الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح في مقابل المشقة هناك : ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء .

ويقول الإمام القشيرى : " فى هذه الآية : " المَثَلُ " أي الصفة ، فصفة الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار ، وأُكُلُها دائم وظلها دائم ، أي أن اللذاتِ فيها متصلةٌ . وإنما لهم جنات معجلة ومؤجلة ، فالمؤَجَّلَةُ ما ذكره الله - سبحانه - في نص القرآن ، والمعجلة جنة الوقت . . والدرجات - من حيث البسط - فيها متصلة ، ونفحاتُ الأُنسِ لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

هذه الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها وظلها . يعنى : أكلها دائم ، وظلها دائم كذلك ، وتلك منةً من الله – سبحانه وتعالى - على عباده المتقين الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويخافونه فى السر والعلن ، وعن ذكره لا يفترون . (١)

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن الأخلاق فيقول – عز وجل - : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الحِجر:٤٥:٤٩]. والمعنى : إن الذين اتقوا ربهم ، وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه يتمتعون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة محمد:١٥]. ويقال لهم يوم القيامة ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التى أنعم يها ربكم عليكم

1- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٢ ، ص ٢٣٢ وما بعدها .

وأكرمكم بها ، ولا تخافون إخراجاً ، ولا فناءً ، ولا زوالاً . ومع هذا النعيم كله تخرج ما فى صدور هؤلاء المتقين من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض .

عن أبى إمامة قال : " يدخل أهل الجنة ، الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلٍّ ، ثم قرأ . " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ " . وقال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدورهم من غلّ، ثم ينزع منه السبع الضاري " . وعن عليٌّ – كرم الله وجهه – : إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين نزعَ الله ما في صدورهم من غلٍّ ويجعلنا إخواناً على سرر متقابلين . فقال رجل من همذان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك فصاح عليٌّ كرم الله تعالى وجهه عليه صيحةً تداعى لها القصر، وقال : فمن إذن إن لم نكن نحن أولئك؟ وقيل : إن ذلك في الآخرة بعد دخول الجنة .

ومجمل القول : " إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ، ونزع منهم كل غل ، وألقى فيها المودة والحب والصفاء ، والمراد بكونهم " على سُرُرٍ متقابلين " أنهم فى رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا ، فهم فى جميع أحوالهم متقابلين ، لا ينظر بعضهم إلى أَقْفِية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادون ، ويتزاورون ويتواصلون ، لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لابد منه لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولة عمل .

وروى الشيخان أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب " . وهم خالدون فيها لا يبرحونها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكمال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان ، حيث إن المسرة بالنعيم والتمتع باللذائذ لا تتم الا إذا كان مقروناً بالتعظيم ، ولذلك أشار إلى هذا بقوله : ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

[سورة الحِجر:٤٦]وأن يكون خالصاً من شوائب الضرر، روحانية كانت. مثل: الحقد، والحسد، والغضب، ولذلك كانت الاشارة بقوله: " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ " . أو جسمانية كالإعياء والتعب، وإلى ذلك الاشارة بقوله: " لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ " . وأن يكون دائماً غير قابل للزوال، ولذلك الإشارة بقوله: " وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ " .

وقيل المعنى: إن المتقين الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم فى الآخرة البساتين الناضرة والعيون المتفجرة بالماء، والسلسبيل، وَالخُمْر، والعسل، ويقال لهم: " ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم " . ومع هذا كله أزلنا ما فى قلوبهم من الحقد والبغضاء والشنآن والفرك والكراهية حال كونهم أخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء، على سرر متقابلين وجها لوجه.

يقول " مجاهد " – رضي الله عنه – : " لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، زيادةً فى الأنس والإكرام " . ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد، لا يصيبهم فى الجنة إعياء ولا تعب، ولا يخرجون منها، فان نعيمهم خالد، وبقاءهم دائم؛ لأنها دار الصفاء والسرور. ويقول الله تعالى مؤكدا هذا المعنى فى آيات كثر.... وذلك كقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة النحل:٢]. ويقول أيضا – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة النحل:١٢٨]. ويقول أيضا – سبحانه وتعالى – : ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة مريم:٦٣]. ويقول أيضا – سبحانه وتعالى – : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة مريم:٨٥]. ويقول

الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [سورة الحج:١].

والمعنى : هو خطاب لجميع البشر يحذرهم من عذابه ، ويخوفهم من نقمته، وأن يطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وجماع القول فى التقوى هو: طاعة الله ، واجتناب محارمه ، ولهذا قال بعض العلماء : " التقوى أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفتقدك حيث أمرك " . ثم علَّل لهذه التقوى والسبب فى ذلك فقال : إن الزلزال الذى يكون بين يدى الساعة أمر عظيم ، وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ؛ حيث تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس بسكارى من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ، وما هم بسكارى حقيقةً ولكن من عذاب الله الشديد .

يقول " قتادة " – رضي الله عنه – : " إنهم سكارى ليس من خمر شربوه طير ألباسهم ، وأذهب عقولهم ، ولكن الذى أسكرهم وأذهب عقولهم ما يشاهدونه من أهوال القيامة ، حيث السماء كشطت ، والنجوم قد انكدرت ،والجبال كالعهن المنفوش ، والأرض زلزلت زلزالها ، وأخرجت أثقالها . وحدثت أخبارها ، وألقت ما فيها وتخلت . وفى هذا اليوم أيضا تذهل المرضعة عن رضيعها دون فطام ، وتلقى الحامل ما فى بطنها دون تمام .وذلك كله مما يرونه من أهوال ، ويشاهدونه من فظائع تجعل الولْدَان شيبا .

ومن الأخلاق القرآنية تعظيم المسلم لشعائر الله فإنها من تقوى القلب ، يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الحج:٣٢]. وقد أمر الله بتقواه ، حيث إنه ربهم الذى رباهم على نعمه ، وكلأهم برعايته ، وحفظهم بقدرته ، وخصهم برحمته ، فناداهم بقوله : إننى أنا ربكم فاتقون ، فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [سورة المؤمنون:٥١:٥٢]. ويبين الحق – سبحانه وتعالى – أن الفائز فى الدار الآخرة هو الذى يطيع الله ورسوله ويخشى الله ويتقيه، فيقول – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [سورة النور:٥١:٥٢]. وهناك كثرة كاثرة من آيات القرآن الكريم تأمر بالتقوى والتخلق بها ، وهى قوله تعالى : " فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ " ، وقد وردت هذه الآية فى سورة الشعراء " ست مرات " . والسابعة قوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾ [سورة الشعراء:١٨٤].

لقد بينا قيمة الخلق فى المجتمع الاسلامى وأنها الموصلة إلى حسن العافية فى الدار الآخرة فقال تعالى : ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [سورة القصص:٨٣]. والمعنى : تلك الدار العالية الرفيعة التى سمعت خبرها ، وبلغك وصفها هى دار النعيم الخالد السرمدي ، التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر والطغيان ، ولا الظلم والعدوان فى هذه الحياة الدنيا ، والعاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه ، ويبتغون رضوانه ، ويحذرون عقابه .

ويقول صاحب اللطائف : " العلو في الدنيا » أَنْ تَتَوَهَّمَ أَنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك . و« الفساد » أن تتحرك لحظِّ نَفْسِك ونصيبك ولوبِنَفَس أو خطوةٍ. وهذا للأكابر، فأمَّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة { نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ } كعُلُو فرعون { وَلَا فَسَادٗا } كفَسَادِ " قارون " . ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوّاً ، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوّاً . ويقال { تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ } للعُبَّادِ والزُّهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار.

ويمضى القرآن الكريم فى مطالبة أهل القرآن بالتحلي بأخلاقه والاستمساك بفضائله ، فيقول – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:١٦]. وقوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الروم:٣١]. وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة لقمان:٣٣]. وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب:١] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [سورة الأحزاب:٣٧]. وقول الحق – سبحانه وتعالى - :" ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٥٥]. وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٧٠] .

ويستمر القرآن فى الحديث عن الأخلاق فبين أن " التقوى " من الأخلاق القرآنية ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة يس:٤٥]. والمعنى : يقول " مجاهد " قال تعالى : " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ "أي من الذنوب. وقال غيره بالعكس ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } أي: لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه. وتقدير كلامه:

أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه. واكتفى عن ذلك بقوله: { وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ } أي: على التوحيد وصدق الرسل { إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ } أي: لا يتأملونها ولا ينتفعون بها .(1)

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة ص:٢٧:٢٨]

والمعنى : أن المفسدون فى الأرض لا يستوون مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كما أنه لا يمكن أن يجعل الله المتقين مثل الفجار فلابد من دار للفجار وهى النار، ولابد من دار للمتقين وهى الجنة ، وبذلك أمر لا ريب فيه . وهذا الإرشاد يدل على العقول السليمة ، والفطر المستقيم على أنه لابد من ميعاد ، وجزاء. فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله ، وولده ، ونعمه ، ويموت كذلك . ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلابد فى حكمة الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار فتعين أن هناك داراً أُخرى لهذا الجزاء وتلك المواساة ، وَلِما كان القرآن الكريم يرشد إلى المقاصد الصحيحة ، والمآخذ العقلية الصريحة .

قال تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ص:٢٩]. ويقول الحسن البصري : " والله ما تَدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ما يرى له القرآنُ في خلق ولا عمل. والله تعالى لا يجعل المحسنين كالمفسدين أبدا . ويقول تعالى :

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة الصافات:١٢٣-١٢٤]

والمعنى : أن تخافوا الله – عزوجل – فى عبادتكم غيره ، ومن حقكم عبادة الله – عزوجل – وعدم الإشراك به ، حيث إنه مربيكم بنعمته والمتفضل عليكم برحمته .

1 - تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٥٧٤ .

ويبين القرآن الكريم أن حسن المآب والمرجع للمتقين ، فقال تعالى : ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة ص:٤٩]. وينادى الله المؤمنين دائما بلفظ التقوى ، وذلك لنجاتهم فى الدار الآخرة فقال تعالى : " ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:١٠] وقوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:١٦]. وقوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٠]، وقول الحق تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٧:٢٨]. وقوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٥٦:٥٧]. وقوله تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٦١] . وقوله سبحانه : وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٧٤].

ويقول الحق-سبحانه وتعالى-: ﴿ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة فُصِّلَت:١٨]. والمعنى : ونجينا صالحاً الذين آمنوا به من ذلك العذاب . وبين الله تعالى أن حسن الثواب فى الآخرة والعافية الحسنة فى دار النعيم المقيم حيث إن الآخرة الحقيقية وهى دار الخلد أعدها الله – عز وجل – للمتقين فقال :

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٣٤:٣٥]. وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٣]. وقولـه تعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٧]. والمعنى : إن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداءً إلا من كانت صداقته ومحبته لله . ويقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوةً إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه . وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين . تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فيقول : ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٨] . في هذا اليوم العصيب ، ولا انتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا " . ويقول صاحب اللطائف : " ما كان لغير اللَّهِ فمآلُه إلا الضياع والأخلاءُ الذين اصطحبوا عَلَى مقتضى الهوى بعضهم لبعض عدو؛ يتبرَّأ بعضُهم من بعضَ ، فلا ينفع أحدٌ أحداً .

وامَّا الأَخِلاَّءُ في اللّه فيشفع بعضهم في بعض ، ويتكلم بعضهم في شأن بعض ، أولئك هم المتقون الذين استثناهم اللّه بقوله : { إِلَّا الْمُتَّقِينَ } .

وشرط الخلَّة في اللّه؛ ألا يستعمل بعضُهم بعضاً في الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعض؛ حتى تكونَ الصحبةُ خالصةً للّه لا لنصيبٍ في الدنيا ، ويكون قبولُ بعضهم بعض لأَجْلِ اللّه ، ولا تجري بينهم مُداهَنةٌ ، وبقَدْرِ ما يرى أحدُهم في صاحبه من قبولٍ لطريقِ اللَّهِ يقبله؛ فإنْ عَلِمَ منه شيئاً لا يرضاه اللَّهُ لا يَرْضَى ذلك من صاحبه ، فإذاً عاد إلى تركه عاد هذا إلى مودته ، وإلاّ فلا ينبغي أن يُساعدَه عَلَى معصيته ، كما ينبغي أن يتقيه بقلبه ، وألا يسكنَ إليه لغرضٍ دنيوي أو لطمعٍ أو لِعِوَض .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ ﴾ [سورة محمد:١٧]. والمعنى : وأما المؤمنون المتقون فقد زادهم الله هدى ، وألهمهم رشدهم . يقول الإمام الفخر : " لما بيّن الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ، ويستعيد ولا يستفيد ، بين أن حال المؤمن المهتدي بخلافه ، فإنه يستمع فيفهم ، ويعمل بما يعلم ، والمنافق يستعيد ، والمهتدي يفسر ويعيد ، وفيه فائدتان إحداهما : ما ذكرنا من بيان التباين بين الفريقين وثانيهما : قطع عذر المنافق وإيضاح كونه مذموم الطريقة ، فإنه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى ، يرد عليه ويقول ليس كذلك ، فإن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه ، فذلك لعماء القلوب ، لا لخفاء المطلوب .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٢٦ ﴾ [سورة الفتح:٢٦]. والمعنى : حين دخل إلى قلوب الكفار الأنفة والكبرياء بالباطل ، فرفضوا أن يكتبوا فى كتاب الصلح " بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ " ، ورفضوا أن يكتبوا " مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ " . وقولهم : أو أنك رسول الله لاتبعناك .ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . " حمية الجاهلية " يعنى : " أنفة وغطرسة وعصبية جاهلية ، فجعل الله الطمأنينة ، والوقار فى قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى ظلاله : " وهذه الحمية لا لعقيدة ولا منهج . إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذي ساقوه ، أن يبلغ محله الذي ينحر فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كي لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة .

ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام! وهي الحمية التي بدت في تجبيهم لكل من أشار عليهم - أول الأمر - بخطة مسالمة ، وعاب عليهم صدّ محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ، ولصفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أثناء الكتابة . وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق . وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي ، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة .

" وألزمهم كلمة التقوى " . إلزام تكريم وتشريف . وهى كلمة التوحيد "لا إله إلا الله " . وهذا قول الجمهور من العلماء . والظاهر أن المراد بكلمة " التقوى " هى إخلاصهم وطاعتهم لله ورسوله ، وعدم شق عصا الطاعة عندما كتبت بنود الصلح ، وكانت مجحفةً بحقوق المسلمين فى الظاهر فثبت الله المؤمنين على طاعة رسول الله – عليه الصلاة والسلام - . وكان فى هذا الصلح كل الخير للمسلمين ، وكانوا أحق بهذه الفضيلة من كفار مكة . لأن الله أختارهم لدينه ، وصحبة نبيه – عليه الصلاة والسلام - . وكان الله عالماً بمن هو أهل للفضل ، فيحقه بمزيد من الخير والتكريم .

وفى التقوى يقول الله – سبحانه وتعالى - : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات: ١٠]. والمعنى : إن المؤمنين منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية، وفى الحديث : " قَالَ – صلى الله عليه وسلم – « الْمُسْلِمُ أَخو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ولا يظلمه لا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا ، كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، لا يخطب امرؤ على خطبة أخيه ، ولا يبع على بيع أخيه ، وإن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ، التقوى ها هنا، وأشار إلى صدره » رواه مسلم في الصحيح . وفى الصحيح أيضا : " إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب : قال الملك : آمين ، ولك بمثله " . ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولابد ، تثبت عن ذلك قوله : " إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " . فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب . " وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ " . فى كل ما تأتون وما تذرون ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين . حيث إن الأخوة فى الدين مثل الأخوة فى النسب ، وكأن الإسلام أب لهم جميعاً . قال الشاعر :

أبى الإسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

" لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " . يعنى : رجاء أن يرحمكم ربكم ، ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه ، واتبعتم أمره ، واجتنبتم نواهيه . وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحُجُرات:١٢].
وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحُجُرات:١٣] .

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن الأخلاق مبينا أن التقوى من الأخلاق القرآنية فيقول – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

[سورة الذاريات:١٥:١٩]. والمعنى : إن الذين اتقوا الله وأطاعوه ، واجتنبوا معاصيه ، فى بساتين وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه ما يرضيهم ويغنيهم ويفوق ما كانوا يؤملون . ثم ذكر الثمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم ، فقال – سبحانه وتعالى -: " إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ " . يعنى : إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح الأعمال خشية من ربهم ، وطلباً لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون . ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الحاقة:٢٤]. ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال : " كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ " . يعنى : كانوا ينامون القليل من الليل ، ويتهجدون فى معظمه .

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها شيئاً ، أما من أولها أو من وسطها ، ويقول " الحسن البصري " : " كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجدوا إلى السحر. وعن أنس – رضي الله عنه – قال : " كانوا يصلون بين المغرب والعشاء ، فهم يحبون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم " . ثم بين القرآن بوصفهم بأداء الزكاة ، والبر بالفقراء فيقول : وجعلوا فى أموالهم جزءاً معيناً ميزوه ، وعزلوه للطالب المحتاج ، والمتعفف الذى لا يجد ما يغنيه، ، ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم . هذه هى التقوى وهى لون من ألوان الأخلاق فى القرآن الكريم ، والتى لو اهتدى بها المسلمون لفازوا بسعادة الدارين . الدنيا والآخرة فى الدنيا السيرة العطرة والسلوك الحميد ، وفى الآخرة بجنات عرضها السماوات والأرض أعدت لهم ولأمثالهم من المتقين . ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [سورة الطور:١٧: ٢٠].

وما زال القرآن الكريم يتحدث عن الأخلاق مبيناً أن تقوى الله من جملة الأخلاق القرآنية فيقول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [سورة القمر:٥٤: ٥٥]. والمعنى : إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوه ، وأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل فى السر والعلن ، ينبئهم بما عملوا جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويجلسون على فرش ، بطانتها من إستبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر كفاء ما بذلوا من الصبر على شاق الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات كما قيل للربيع بن خيثم . وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غاصت عيناه ، " أتعبت نفسك " فقال : الربيع بن خيثم : راحتها أطلب .

كما أنهم ينالون الزلفى عند ربهم ، القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته ، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب وهو العزيز الحكيم . اللهم احشرنا فى زمرتهم ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، واجعل اللهم القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا انك أنت السميع القريب المجيب . ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [سورة الحديد:٢٨]. ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾ [سورة المجادلة:٩]. ومثل هذه الآيات قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [سورة الحشر:١٨]. ويقول الحق –

سبحانه وتعالى – أيضا : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ [سورة الممتحنة:١١]. والمعنى : وإن فرت زوجة أحد من المسلمين ولحقت بالكفار فغزوتم وغنمتم وأصبتم من الكفار غنيمةً فأعطوا لمن فرت زوجته مثل ما أنفقه عليها من المهر، من الغنيمة التى بأيديكم ، يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – : " يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار أمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة وهكذا قال مجاهد { فَعَاقَبْتُمْ } أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم { فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا } يعني مهر مثلها وهكذا قال مسروق وإبراهيم وقتادة ومقاتل والضحاك وسفيان بن حسين والزهري أيضا وهذا لا ينافي الأول لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى وإلا فمن الغنائم التي تؤخذ من أيدي الكفار.

يقول القرطبي : " لما نزلت الآية السابقة وهى : ﴿وَسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ [سورة الممتحنة:١٠]، قال المسلمون : رضينا بما حكم الله، وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ . ونقل القرطبي عن قتادة أن هذا الحكم قد نسخ بسورة براء . وراقبوا الله فى أقوالكم وأفعالكم ، واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره ، وهو الله الذى آمنتم وصدقتم بوجوده ، فإن من مستلزمات الإيمان " تقوى الرحمن " .

ومثلها قول الله – عز وجل – : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة التغابن:١٦]. وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ

إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ
نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ
مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ
أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ
ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ
ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ
وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ
أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ
﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ
عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ
أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [سورة الطلاق:١:١١].
ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا
وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة التحريم:٦]. والمعنى : يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله ، أحفظوا أنفسكم ، وصونوا أزواجكم وأولادكم ، من نار حامية مستعرة وذلك بترك المعاصي ، وفعل الطاعات ، وبتأديبهم ، وتعليمهم .

يقول مجاهد – رضي اللّه عنه – : " أي اتقوا اللّه ، وأوصوا أهليكم بتقوى اللّه " . ويقول الخازن فى تفسيره : " أي مروهم بالخير ، وانهوهم عن الشر ، وعلموهم وأدبوهم حتى تَقُوهُم بذلك من النار ، والمراد بالأهل : " النساء ، والأولاد وما ألحق بهما " . ونحن نرى أن المقصود من قوله : " وما يلحق بهما ، أولاد الأولاد وما إلى ذلك من الأحفاد .

ووقود جهنم ، وحطبها الذى تسعر به هو" الخلائق والحجارة . يقول المفسرون : " أراد بالحجارة حجارة الكبريت ، لأنها أشد الأشياء حراً ، وأسرع أتقاداً ، وَعُنِيّ بذلك أنها مُفْرِطة الحرارة ، وليست كنار الدنيا . يقول ابن مسعود – رضي اللّه عنهما – : " حطبها الذى يلقى فيها " بنو آدم ، وحجارة من كبريت " أنتن من الجيفة " . وعلى هذه النار زبانية غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ، لأنهم خلقوا من الغضب ، وحبب إليهم عذاب الخلق ، كما حبب لبنى آدم أكل الطعام والشراب وهم لا يعصون أمر اللّه بحال من الأحوال ، وينفذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير .

ومثلها قول الحق : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة القلم:٣٤]. ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة نوح:٣]. والمعنى : أمركم بعبادة اللّه وحده ، والأمر بذلك يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب ، وأفعال الجوارح ، وأننى آمركم بتقواه ، وخوف عذابه ، بأن تتركوا محارمه ، وتجتنبوا مآثمه ، وانتهوا إلى ما آمركم به وأقبلوا نصيحيتى لكم .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المرسلات:٤١:٤٣]. والمعنى : إن المتقين فى ظلال ظليلة ، وكن كنين ، وعيون وأنهار وفى ظلال

الأشجار، وظلال القصور، فلا يصيبهم أذى حر ولا قر بخلاف الكافرين فإنهم فى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى عن اللهب .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النبأ: ٣١:٣٣]. والمعنى : إن الذين اتقوا محارم الله، وخافوا عقابه سيفوزون بالكرامة والثواب العظيم فى جنات النعيم ، ثم نرى القرآن يفسر هذا القول بقوله : ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [سورة النبأ: ٣٦].

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [سورة الليل: ٥:٢١]. والمعنى : فأما من أعطى المال ، وأنفقه فى وجوه الخير، وصدق بثبوت الفضيلة ، والعمل الطيب مما هو مذكور فى طبيعة الإنسان فسنهيئه لليسرى ، وأما من أمسك ماله الذى يبخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة المسلمة ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [سورة الأنعام: ٩٤].

وقد خلقنا الإنسان وألهمناه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ثم بعثنا له الكلمة من أفراده وهم الأنبياء وشرعنا لهم الأحكام وَبَيّنا لهم العقائد تعليماً وإرشاداً ، ثم هو بعد ذلك يختار أحد السبيلين : سبيل الخير والفلاح ،

والسبيل المعوج فيتردى فى الهاوية ، وإنا لنحن المالكون لكل ما فى الدنيا ، وكل ما فى الآخرة ، فنهب ما نشاء لمن نريد ، وإذا كان ملك الحياتين لله كان هديه هو الذى يجب إتباعه فيها لأن المالك لأمر عالم بوجوده التصرف فيه ، ولرحمتنا بكم وعلمنا الكامل بمصلحتكم أسدينا لكم الهدى فأنذرناكم ناراً تلتهب يعذب فيها من كذب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به عن ربه من الآيات ، واعرض عن إتباع شرائعه وانصرف عن وجه الحق ، ولم يعد إليها ثانياً نادماً . وسيبعد عنها المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصي الشديد التحرز فيها بحيث لا يخطرهما له ببال . (١)

1 - تفسير المراغى جـ ٥ وما بعدها ، جـ ٩، ص ١٣٠. وذاته ص ١٧٧،وذاته ١٠٢. جـ ١٠،ص ٧٩ .

الاستقامة

ومن الأخلاق القرآنية " الاستقامة " . يقول الحق – سبحانه وتعالى – :
﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [سورة الفاتحة:٦:٧]. والمعنى : وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته . فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ، ورعايته ، ورحمته . والتوجه إلى الله فى هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده هو المعين . وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه . فالهداية إلى الطريق المستقيم هى ضمان السعادة فى الدنيا والآخرة عن يقين . وهى فى حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله الذى ينسق بين حركة الإنسان ، وحركة الوجود كله فى الاتجاه إلى الله رب العالمين ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم .

" صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ " . فهو طريق الذين قسم لهم نعمته ، لا طريق الذين غضب الله عليهم لمعرفتهم الحق ، ثم حيدتهم عنه . أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلاً إليه ... إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين . وبعد فهذه السورة المختارة للتكرار فى كل صلاة ، والتى لا تصح بدونها صلاة وفيها على قصرها تلك الكلمات الأساسية فى التصور الاسلامى ، وتلك التوجهات الشعورية المنبثقة من ذلك التصور.

وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث عَنِ الْعَلاَءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم– قَالَ « مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهْىَ خِدَاجٌ – ثَلاَثاً – غَيْرُ تَمَامٍ ». فَقِيلَ لأَبِى هُرَيْرَةَ إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ. فَقَالَ اقْرَأْ بِهَا فِى نَفْسِكَ فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِى عَبْدِى وَإِذَا قَالَ (ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ). قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَىَّ عَبْدِى. وَإِذَا قَالَ (مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ). قَالَ مَجَّدَنِى عَبْدِى – وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَىَّ عَبْدِى – فَإِذَا قَالَ (إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ).قَالَ هَذَا بَيْنِى وَبَيْنَ عَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ (ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ). قَالَ هَذَا لِعَبْدِى وَلِعَبْدِى مَا سَأَلَ ». قَالَ سُفْيَانُ حَدَّثَنِى بِهِ الْعَلاَءُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْقُوبَ دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهُوَمَرِيضٌ فِى بَيْتِهِ فَسَأَلْتُهُ أَنَا عَنْهُ. ولعل هذا الحديث الصحيح . بعد ما تبين من سياق السورة ما تبين – يكشف عن سر من أسرار اختيار السورة ليرددها المؤمن "سبع عشر مرة " فى كل يوم وليلة ، أوما شاء الله أن يرددها كلما يدعوه فى الصلاة .

ويقول صاحب اللطائف : " ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ " . أي أزِلْ عنا ظلمَاتِ أحوالنا لنستضيء بأنوار قُدْسِك عن التفيؤ بظلال طلبنا ، وارفع عنا ظل جهدنا لنستبصر بنجوم جودك ، فنجدك بك . حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه ، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها ، أو يصدنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد ، أويحول بيننا وبين الاستبصار وكونوا معتاد من الثقلين ، وتستهوينا آفة من نشوأ وهوادة ، وظن أو عادة ، وَكَلَل أو ضعف إرادة ، وطمع مالٍ أواستزادة . والصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل ، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد ، ونبهت عليه شواهد التحقيق ، الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة ، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظَ سالكُه ، وفارق الحقوقَ قاصدُه . الصراط المستقيم ما يُفْضِي بسالكه إلى ساحة التوحيد ، ويُشْهِدُ صاحبَه أثرَ العناية والجود ، لئلا يظنه موجَبٌ ببذل المجهود . ومعنى " موجب" . يعنى مستحق وهنا يتضح موقف الإمام القشيرى من قضية مهمة وهى " هل يجب على الله أن يثيب المطيع ؟ ولا يرى القشيرى هذا الوجوب . يعنى : لا يرى القشيرى أنه من الواجب

على اللّٰه أن يثيب المطيع ، لأنه يربط كل عمل للعبد بالعناية الإلهية ، ولا بالمجهود الانسانى .

يعني طريق من أنعمتَ عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء . ويقال طريق من أفنيتهم عنهم ، وأقمتهم بك لك ، حتى لم يقفوا في الطريق ، ولم تصدهم عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم . ويقال صراط من طهرتهم عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك . ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان ، ومغاليط النفوس ومخاييل الظنون ، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشرية . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبري من الحول والقوة ، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار ، والعلم بتوحيدك فيما تمضيه من المَسَار والمضار . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة ، واستشعار نَعَتْ الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات بواده الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخِلُّوا بشيء من أحكام الشريعة . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئ شموسُ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيِّعُوا شيئاً من أحكام الشرع . ويقال صراط الذين أنعمتَ عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

وقد صدق رسول اللّٰه – صلى اللّٰه عليه وسلم – حين قال : " لَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ " . قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .قَالَ : « وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِىَ اللَّهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ ». وَقَالَ ابْنُ عَوْنٍ بِيَدِهِ هَكَذَا وَأَشَارَ عَلَى رَأْسِهِ « وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِىَ اللَّهُ مِنْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ » . والمعنى : ليس هناك أحد ينجيه عمله الذى يعمله من صوم ، وصلاة ، وزكاة ، وحج واعتمار ، وما إلى ذلك من الأعمال حتى

رسول الله – صلى الله عليه وسلم - مع كبير فضله ، وعظيم عمله ، لا يدخل الجنة بعمله ولكن يدخلها بتغمد الله له بفضله ورحمته .

ويؤكد القرآن الكريم هذه المعاني الساميات فى قوله – سبحانه وتعالى- : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس:٨٨:٨٩]. والمعنى : قال لهما – سبحانه وتعالى – قد قبلت دعوتكما على فرعون وقومه ، فامضيا لأمري ، واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق ، ومن إعداد شعبكما للكفاح وَالِجَلاد والخروج من مصر. ولا تسلكا سبيل الذين لا يعلمون سنني في خلقي ، الذين يستعجلون الأمر قبل ميقاته ، ويستبطئون وقوعه في حينه.

وفى سفر الخروج من " التوراة " ما يدل على استجابة دعوة موسى - عليه السلام - حين تنزل النوازل على مصر وأهلها فيلجأ " فرعون " إلى موسى - عليه السلام - حين كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا يه ، حتى إذا كشفها قَسّى الرب قلب " فرعون " فأصر على كُفْرِهِ . وما قاله المفسرون فى تفسير " الطمس على الأموال " فهو ترهات الأباطيل الاسرائيلة التى روجها " كعب الأحبار " وأمثاله ممن كان مقصدهم صد اليهود عن الإسلام مما يرويه فى تفسيره مخالفاً لما هومتفق عليه عندهم ، وعند غيرهم من المؤرخين فى وقائع عملية ، وأمور حسية .

ويقول المولى – عزوجل - فى نفس المعنى : ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة مريم:٣٦]. والمعنى : ومما أمر به " عيسى " - عليه السلام - قومه وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله : " إن الله ربى وربكم " وأمرهم بعبادته . وهذا الذى أوصيتكم به أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم ،

فمن سلكه نجا ، ومن أتبعه اهتدى ، لأنه هو الدين الذى أمر به أنبياءه ، من خالفه ضل وغوى، وسلك سبيل الردى .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الحج:٢٣:٢٤]. والمعنى : إنهم أرشدوا إلى الكلام الطيب ، والقول النافع ، إذ ليس فى الجنة لغو أو كذب ، وهدوا إلى صراط الله ، وهوالجنة دار المتقين . ويقول الله تعالى فى ذلك المعنى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الحج:٥٤]. والمعنى : وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ، فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من فى قلبه مرض . وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ومنقذهم من الضلالة والغواية .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٧٣:٧٤]. والمعنى : "وإنك يا محمد – صلى الله عليك وسلم - لتدعوهم إلى الطريق المستقيم، وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم . ويقول – عز من قائل - : ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة النور:٤٦] والمعنى : لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحات وآيات على طريق الحق وهو الإسلام .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٢٧]. والمعنى : : واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط فى جنب الله وعض اليدين كنايةً عن

الندم والحسرة . والمراد بالظالم هنا : " عقبة بن معيط " وهى تعم كل ظالم فى كل عصر وزمان ومكان . يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرْية فيه، وسلك طريقاً أخر غير سبيل الله ورسوله ، فإذا كان يوم القيامة ندمَ حيثُ لا ينفعه الندَمُ، وَعْضّ على يديه حسرةً وأسفا . وسواء كان سبب نزولها في " عقبة بن أبي مُعَيط " أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ، كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأحزاب:٦٦:٦٨]فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يديه قائلا : ﴿ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الفرقان:٢٧:٢٨]يعني : مَن صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك" أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف " ، أو غيرهما. { لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ } وهو القرآن{ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ } أي: بعد بلوغه إلي أن قال الله تعالى :{ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا } أي : يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

ثم يقول الظالم : يا ليتنى أتبعت الله ورسوله فاتخذت معه الطريق إلى الهدى ينجيني من العذاب ، ويا هلاكي وحسرتى ، يا ليتنى لم أصاحب فلاناً وأجعله صديقاً لي . ولفظ فلان كناية عن الشخص الذى أضله وهو" أُبَيّ بن خلف". ويقول " القرطبي " : وكنى عنه ، ولم يصرح باسمه ليتبادل جميع من فعل مثله . حيث انه أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت .

ويقول تعالى أيضا : ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾﴾ [سورة الفرقان:٥٧]. والمعنى : قل لهم يا محمد –

صلى الله عليك وسلم - لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ، ولكنه من يشاء أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان بالله وطاعته ، وأجرى على الله ، وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الروم:٣٠]. ويقول أيضا : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة الروم:٤٢:٤٣]. والمعنى : أخلص دينك لله ، وأقبل على الإسلام وبهمة ونشاط مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق وهو الإسلام وهذا الدين الحق الذى أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقة الله التى خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما فى الحديث : (١) . يقول ابن الجوزى : " لفظه لفظ النفى ، ومعناه النهى ، والمعنى على ذلك لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها. فيكون خبراً بمعنى الطلب . ذلك هو الدين المستقيم ، ولكن الناس جهلة لا يتفكرون ، ولو أنهم تفكروا لعلموا ، وعرفوا ، وتأكدوا أن لهم خالقاً ومعبوداً هو الله – عز وجل - وتوجه بكليتك إلى الدين المستقيم ، وهو دين الإسلام واستقم عليه فى حياتك .

يقول " القرطبي " قال تعالى : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ " : أي أقم قصدك، واجعل جهتك إتباع الدين القيم ، يعني الإسلام . من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله . أي لا يرده الله عنهم ، فإذا لم يرده لم يتهيأ لأحد دفعه . والمراد يوم القيامة . ويومئذ يتفرقون ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ:٦].

1 - رواه الشيخان .

والمعنى : ويرشد الله – عز وجل – ويهدى من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذى لا يقهر، المحمود فى ذاته وصفاته، وأفعاله . ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة يس:٣:٤]. ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة يس:٦٠:٦١]. والمعنى : إنك على طريق ونهج مستقيم، لا إنحراف فيه ولا اعوجاج، هو الإسلام دين الرسل قبلك، الذين جاءوا بالإيمان والتوحيد . يقول " القرطبي " : " أي على طريق لا اعوجاج فيه من الهدى وهو الإسلام، كما قال " قتادة " – رضي الله عنه – :" والتنكير للتفخيم والتعظيم . وأمرتكم بأن تعبدوني وحدي، وذلك بتوحيدي، وطاعتي، وأمتثال أمري هذا هو الدين الصحيح، والطريق الحق المستقيم .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى-:﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة الصافات:١١٨]. والمعنى: وهديناهما الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه. يقول الطبري : " وهو الإسلام دين الله الذى اتبعت به الأنبياء . ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ [سورة ص:٢٢]. والمعنى : حين دخلوا على " داود " – عليه السلام – من أعلى السور فخاف وارتعد منهم، قال المفسرون :"وإنما فزع " داود " – عليه السلام – منهم أنهم دخلوا عليه بغير إذن، ودخلوا أيضا من غير الباب المعهود الدخول منه، وكان ذلك فى وقت خصصه " داود "– عليه السلام – للعبادة، فقالوا له : لا تخف فنحن قومان مختصمان تعدى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالعدل ولا تظلم فى الحكم، وأرشدنا إلى الطريق السوي المستقيم الواضح .

وفى القرآن الكريم كثرة كاثرة من الآيات التى تأمر المسلم بهذا الخلق وهو" الاستقامة " . فيقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٦]. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٠:٣١]. وقال تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الشورى:١٣:١٤]. وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الشورى:٣٥]. وقوله أيضا ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الشورى:٥٣].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٤].

وقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [سورة الأحقاف:١٣:١٤]. وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [سورة محمد:١٧]. وقوله تعالى : ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [سورة الفتح:٢]. ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة الفتح:٢٠]. وقال تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة المُلك:٢١:٢٢].

والمعنى : هل من يمشى مُنَكِساً رأسه لا يرى طريقه ، فهو يخبط خبط عشوائي ، مثل الأعمى الذى يتعثر كل ساعة فيخر على وجهه ، هل هذا أهدى أم من يمشى منتصب القامة يرى طريقه ولا يتعثر فى خطواته ، لأنه يسير على طريق بَيّنْ واضح؟ . يقول المفسرون : " وهذا مَثَلُ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر كالأعمى الماشي على غير هدى وبصيرة ، لا يهتدي إلى الطريق فيتعثر ولا يزال ينكب على وجهه ، والمؤمن كالرجل السوي الصحيح البصير ، الماشي على الطريق المستقيم فهو آمن من الخبط والعثار ، هذا مثلها فى الدنيا ، وكذلك يكون حالهما فى الآخرة فإن المؤمن إذا يحشر يمشى سوياً على الصراط المستقيم ، والكافر يحشر على وجهه إلى دركات الجحيم .

يقول قتادة –رضي الله عنه– :"إن الكافر أكبّ على معاصي الله في الدنيا، وحشره الله يوم القيامة على وجهه ، فقيل: يا نبيّ الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ . قال: " إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يحشره يوم القيامة على وجهه . والكافر يعمل بمعصية الله، فيحشره الله يوم القيامة على وجهه. والمؤمن كان على

الدين الواضح فحشره الله على الطريق السوي يوم القيامة ، ويقول ابن عباس– رضي الله عنهما – :"هومَثَلٌ لمن سلك طريق الضلال، ولمن سلك طريق الهدى .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى– : ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الجن:١٦] . والمعنى : وأوحى إليه أنه لو استقام الإنس والجن على ملة واحدة وهى الإسلام ، لوسعنا عليهم أرزاقهم ، ولبسطنا لهم فى الدنيا، وإنما خص الماء الغدق بالذكر لأنه أصل المعاش ، وكثرته أصل السعه ومن ثم قيل : " حيثما كان الماء كان المال " .وحيثما كان المال كانت الفتنة ، ولندرة وجوده بين العرب ومن ثم امتن الله على نبيه – صلى الله عليه وسلم – بقوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴿١﴾﴾ [سورة الكوثر:١]. وذلك على تفسير الكوثر بالنهر الجاري ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف:٩٦]. والسر فى ذلك أن الخصب والسعة لا يوجدان إلا حيث توجد الطمأنينة والعدل ، ويزول الظلم وتكون الناس سواسية فى نيل الحقوق . فلا ظلم ، ولا إرهاب ، ولا محاباة ، ولا رشوة فى الأحكام . ويقول صاحب اللطائف : " والاستقامة على الطريق تقتضى كمال النعمة ، وإكثار الراحة ، والإعراض عن الله يوجب تنغص العيش ، ودوام العقوبة .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة التكوير:٢٨]. والمعنى : إنه ذِكْر يتذكر به من وجه إرادته للاستقامة على جادة الحق والصواب ، وأما من انحرف عن ذلك فلا يؤثر فيه هذا الذِكْر ولا يخرجه من غفلته . فعلى نسيئة المكلف تتوقف الهداية ، وقد فرض عليه أن يوجه فكره نحو الحق ويطلبه ، ويجد فى كسب الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا . بم دفعتموه أن إرادة الإنسان مستقلة فى فعل ما يريد ، وله الاختيار التام فيما يفعل وهو منقطع العلاقة فى إرادته من سلطان ربه فقال تعالى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

ﵟٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ﵞ [سورة التكوير:٢٩]. ويقول صاحب اللطائف : " ما هذا القرآن إلا ذكرى لمن شاء منكم أن يستقيم .

ويقول تعالى : ﵟأَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ﵞ [سورة العلق:١١]. والمعنى : "أخبرني عن حال ذلك الطاغية ، لوتخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى اللّٰه ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر به ، والنهى عن طاعته ، فإن ذلك يفوت عليه أعلى المراتب ويجعله فى أحط الدركات وأدناها ، أما كان الأفضل له أن يهتدي ويهدى غيره إلى خصال البر والخير ، وقد كانت هذه حال النبي – صلى اللّٰه عليه وسلم - فعمله كان إما فى إصلاح غيره يأمره بالتقوى ودعائه إليها ، وفى اللطائف: لو كان على الهدى لكان خيراً له . (١)

1- فى ظلال القرآن الكريم جـ ١ ، ص ٢٦ .

إكرام الضيف وإطعام الطعام

من أخلاق الإسلام " إكرام الضيف ، وإطعام الطعام " . وفى الحديث : "روى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : « أن الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في إناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك ، فنذر عَلِيّ وفاطمة وَفِضْة جارية لهما ، إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا ، وما معهم شيء فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصواع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً ، واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف عليهم سائل .

فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة .

فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه وجاءهم أسير في الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ عَلِيّ – عليه السلام – بيد الحسن والحسين ودخلوا على الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع . قال : " ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم " . وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك ، فنزل جبريل – عليه السلام – ، وقال : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأها السورة » .

فنزل قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [سورة الإنسان:٧:١٣].

ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ » .

قَالَ : وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

قَالَ : « يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْلِيَصْمُتْ » [1] . ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر:٩].

ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " ما يؤمن من بات شبعان وجاره طاوإلى جنبه " أي جوعان . والكرم عادة لدى العرب فى جاهليتهم وإسلامهم فيروى أن " حاتم الطائي " كان يستقبل ضيفاته بصدر رحب ، وَيَهشُ فى وجوههم ، ويحسن استقبالهم ، ويكرمهم كل الإكرام فيقول :

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ ... وَيَخْصِبُ عِنْدِي ، وَالْمَحَلّ جَدِيبُ

وَمَا الْخِصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقِرَى ... وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

فإن من سماحته لم يطمس كل ما كان فى الجاهلية ، فما اتفق مع أخلاق الإسلام أيده ووافق عليه مثل الكرم ، والمروءة ، والشامة إغاثة الملهوف ، ومساعدة المحتاج ، إعانة المظلوم ...... وهكذا . وما يختلف مع الإسلام وأخلاقه مثل " الزنا ، الربا ، شرب الخمر، لعب الميسر " أنكره وحاربه ، ونهى عنه .

ومن الأخلاق القرآنية يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾

1 - رواه البخارى.

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾
قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ
﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ
إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ
ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ
قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ
مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾
قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [سورة هود:٦٩: ٨٠]. والمعنى : هذه القصة الرابعة فى سورة " هود " - عليه السلام - ، وهى قصة لوط وهلاك قومه المكذبين ، أي : جاءت الملائكة الذين أرسلنا هم لإهلاك " قوم لوط " . جاءت سيدنا إبراهيم بالبشارة بإسحاق، وهى البشارة بالولد،وقيل: " بهلاك قوم لوط " ، والظاهر أن البشارة كانت بالولد.

يقول " القرطبي " : " لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم – عليه السلام – فظنهم أضيافاً ، وهم " جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل " قاله ابن عباس – رضي الله عنهما – . ويقول " السدى " : " كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه ، فسلموا عليه سلاماً ، وقال لهم " إبراهيم " : سلام عليكم . يقول المفسرون : " رد عليهم التحية بأحسن من تحيتهم ، لأنه جاء بها جملةً اسمية، والجملة الإسمية هنا تدل على الثبات والاستمرار فما أبطأ " إبراهيم " -عليه السلام - ولا تأخر مجيئه اليهم حتى جاءهم بعجل مشوي فقدمه لهم . يقول " الزمخشرى " فى " كشافه " : " والعجل هو ولد البقرة . ويسمى " الحسيل " . وكان مال " إبراهيم " - عليه السلام - " البقرة " . والحنيذ هو اللحم المشوي بالحجارة المحماه فى أخدود " . وقيل : هو الذى يقطر دسمه . ويدل عليه قوله – تعالى – "

بعجل سمين - . وجاءه قومه يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف ، كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعا ، ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة ، فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين .

يقول " القرطبي " : " وكان سبب إسراعهم ما روي أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجالس قومها فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالاً وكذا وكذا فحينئذ جاؤوا يهرعون إليه ويذكر أن الرسل لما وصلوا إلى بلد لوط ، وجدوا لوطا في حرث له وقيل : وجدوا ابنته تستقي ماء من نهر سدوم فسألوها الدلالة على من يضيفهم ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط وقالت لهم : مكانكم ! وذهبت إلى أبيها فأخبرته فخرج إليهم .

فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة .

فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ .

فقالوا : وما عملهم ؟ .

فقال : أشهد بالله إنهم لشر قوم في الأرض - وقد كان الله - عز وجل - قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات - فلما قال لوط هذه المقالة قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة وتردد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ثم دخل بهم المدينة .

فقال لهم سيدنا " لوط " - عليه السلام - : " هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن ، فذلك أطهر لكم وأفضل ، وإنما قال : " بَنَاتِى " ، لأن كل نبي أب ،لأمته فى الشفقة والتربية . فاتقوا الله وأخشوا عذابه ، ولا تفضحوني ، وتهينوني فى ضيوفي ، أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار . ويقول " المراغى " فى تفسيره : " اختلفت الرواية فى الملائكة : فعن " عطاء " إنهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل - عليهم السلام - . وقيل إنهم جبريل وسبعة ملائكه معه " .

ومثل هذا الأمر لا يعلم إلا بتوقيف من الوحي ، ولم يثبت . أما بشارة الولد ، فلقوله – سبحانه وتعالى – : " فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ " . " وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ " ، وجاء فى سورة الذاريات : ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الذاريات:٢٧]. وفى هذا دليل على أنه كان مشويا معدا لمن يجئ من الضيوف ، وربما كان قد شوي عند وصولهم بلا تريث ولا إبطاء .

وحين عرض عليهم الزواج من البنات لأنهن أطهر لهم .يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – " ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدات للزواج، ومراده أن الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط ، فإنه يكبح جماح الشهوة مع الأمن من الفساد . " فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ " . وإهانة الضيوف هى إهانة للمضيف وفضيحةً لهم . أليس منكم رجل ذو رُشْدٍ وحكمة ينهى من أرادوا ركوب الفاحشة من ضيوفي : فيحول بينهم وبين ما يريدون . ويقول " صاحب اللطائف " : قوله تعالى { هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} : قيل إنه أراد به نساء أمته ، فنبيُّ كلِّ أمةٍ مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة . ويقال إنه أراد بناتِه منْ صُلْبِه .

« أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ » يرتدي جلبابَ الحشمة ، ويؤثِر حقَّ الله على ما هو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك معصية الله ؟ . وأصرُّوا على عصيانهم ، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً ، وانجرُّوا إلى ما قادهم إليه الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم؛ لا يَرْدَعُها عقلٌ . ونهاهم عن اللواط كما فى آية أخرى وهى : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [سورة الشعراء:١٦٥:١٦٦].

وقوله فى آية أخرى : " قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ " . يعنى : " ألم ننهاك عن ضيافة الرجال " ؟ هذه هى أخلاق القرآن الكريم التى ترشدنا إلى إكرام الضيف وإطعام الطعام . فعندما جاءت الملائكة لسيدنا " لوط "– عليه السلام –

هرع إليه قومه لإرتكاب الفاحشة معهم ، فأخذهم إلى الأخلاق الفاضلة والتوجهات الراشدة ، وذلك بالزواج الحلال الطيب من بناته ، حيث هو أب لأمته ، ولما جاءت الرسل بالبشرى لسيدنا " إبراهيم " - عليه السلام - لم يلبث أن جاء بعجل مشوى وقدمه لهم ليأكلوه ، ولم يعلم أنهم ملائكة ، ولوعلم ما قدم اليهم الطعام ، لأنه يعلم حقيقتهم ، وأوصافهم ، ولكن ذلك قدوة حسنة ، وأسوة تحتذى فى إكرام الضيفان ، واطعام الطعام ، فيجب على المسلم أن يتخلق بأخلاقهم ، وأن تتحذهم نبراسا يضئ أمامه الطريق اللاَّحِبْ .

وفى نفس المعنى: يقول الحق –سبحانه وتعالى- ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الحِجر:٦٧: ٧٠]. والمعنى : هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء فتلحقون بى العار وتفضحوني أمامهم ، واتقوا الله ، وخافوه أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه .

" وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ " . ويقول " المراغى " : " قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة " هم ضيوفي " . وحق على الرجل إكرام ضيفه ، فلا تفضحوني فيهم ، وأكرموني بترك التعرض لهم بمكروه . ثم زاد النهى توكيداً بقوله – سبحانه وتعالى – : " وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ " . وهذه الجملة آكدةً فى الغرض من سابقتها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذنب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاجهم ، ومجاهرتهم بمخالفته بالخزي ، وأمرهم بتقوى الله فى ذلك .

وفى معنى الإكرام وإطعام الطعام واحترام الضيفان يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف:٢١].

وقولـــه أيـــضا : ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة يوسف:٥٨:٥٩]. والمعنى : قال الذى اشترى سيدنا " يوسف " - عليه السلام - من مدينة مصر لزوجه : " اكرمى إقامته عندنا . يقول " ابن عباس " – رضي الله عنهما - : كان اسم الذى اشتراه " قطفير " وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر. وعن " عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه - أنه قال : " أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته قوله تعالى: { أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ } والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى - عليه السلام - قوله تعالى : { يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ} . وأبوبكر الصديق – رضي الله عنه - حين استخلف عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما .

فى قوله تعالى " وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ " . يعنى : خير من يكرمكم ، ويحسن استقبالكم ، وقال " يوسف " - عليه السلام - لهم ذلك القول ليزعنهم فى الرجوع إليه ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم . فى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الحج:٢٧]. وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الحج:٣٦]. والمعنى : وأطعموا منها البائس الذى أصابه بؤس وشدة ، والفقير الذى أضعفه الإعسار.

يقول " ابن عباس " – رضي الله عنهما - : " البائس هو الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه ، والفقير هو الذى لا يكون كذلك ، ثيابه نقيةً ووجهه غنى " . ويقول " صاحب اللطائف " : " شاركوا الفقراء فى الأكل من ذبيحتكم لتلحقكم

بركاتُ الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا ساحةَ الخضوع والتواضع ، ومجانبة الزَّهْو والتكبُّر " . ونحن نرى أن الآيات القرآنية الكريمة آنفة الذكر تحث المسلم على العطف على الفقراء والمساكين ، وهم الذين يحتاجون إلى الإكرام والمراعاة . ويقول الفقهاء : الفقير هوالذى يملك قوت يومه ، والمسكين هوالذى لا يملك قوت يومه . فواجب على المسلم صاحب الخلق أن يتعرف على هؤلاء الذين يحتاجون إلى البذل والعطاء والرأفة والرحمة والشفقة والحماية من غوائل الزمن وقساوة الدهر .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ سميت بدنا لبدانتها وضخامة أجسامها ، والإبل السمينة جعلناها من أعلام الشريعة التى شرعها الله لعباده .والمعنى : كلوا من هذه الهدايا ، وأطعموا القانع المتعفف ، والمعتر وهو السائل . وهذا قول " ابن عباس "– رضي الله عنهما – وغيره من السلف .

ويقول " الرازي " : " والأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر هوالذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبداً " . وقال بعض المفسرون : والأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتر : هوالذي يعترض ويطالب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبداً . وقال ابن زيد : القانع المسكين ، والمعتر الذي ليس بمسكين ، ولا يكون له ذبيحة ، ويجيء إلى القوم فيتعرض لهم لأجل لحمهم . وهى دعوة إلى البذل والعطاء والإنفاق فى سبيل الله خاصة الذين يكونون بحاجة إلى المال والطعام وما إلى ذلك من لوازم الحياة .

وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الذاريات:٢٧] . والمعنى : فذهب خِفْيّةً مسرعاً ، وقدم لضيوفه عجلاً سميناً ، كما جاء فى سورة هود : " ثم استحثهم على الأكل ، فقال لهم : " أَلَا تَأْكُلُونَ ؟ . وفى هذا تلطف منه فى العبارة وعرض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله ، وهو عجل فَتِيّ مشوي ووضعه بين أيديهم ، ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتلطف فى العرض فقال : أَلَا تَأْكُلُونَ " . وفى اللطائف : " عدل إليهم من حيث لا يعلم الاضياف ، وكذلك يكون روغان الكرام خفيةً حتى لا يسبب لأضيافه حرج .

ويقول الله – سبحانه وتعالى – فى معنى الإكرام وإطعام الطعام :
﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحشر:٩:١٠]. ويقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الإنسان:١٠]. والمعنى : ويطعمون الطعام مع حبهم له وشهوتهم إليه فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ويتيماً مات أبوه وهو صغير فعدم الناصر والكفيل ، وأسيراً وهو من أُسِرَ فى الحرب من المشركين .

ويقول " الحسن البصري " : " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ، ويقول له : أحسن إليه . فيكون عنده

اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وقد نبه الله – عز وجل - إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم الماسة إلى ذلك الطعام ، فى سد جوعتهم ،وجوعةَ عيالهم يطيبون نفساً عنه للبؤساء ، ويؤثرونهم به على أنفسهم ، وذلك مثل قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحشر:٩].

ويقول الله –سبحانه وتعالى-: ﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [سورة الفجر:١٨]. والمعنى : ولا يُحَاض بعضكم بعضا ولا يحثه على إطعام الطعام للمحتاجين ، وعن المساكين ، وقد ذم القرآن الكريم البخل والبخلاء الذين لا يكرمون اليتيم ولا يعطفون على المسكين ، فهؤلاء يستحقون الاهانة على هذه الخصال المذمومة . وخاتمة المطاف فيما ورد فى القرآن الكريم من الحث على البذل والعطاء والإنفاق وإطعام الطعام والعطف على الفقراء والمساكين والمحتاجين والمعوذين ، وأبناء السبيل. فيقول الله–سبحانه وتعالى-: ﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة البلد:١٤:١٦]. والمعنى : أو إطعام الطعام يتيم من أقاربه فى أيام الجوع والعوذ والفاقة ، والحاجة ، فهو جمع بين حقين : حق اليتيم ، وحق القرابة . أو إطعام المسكين الذى لا وسيله له إلى كسب المال لضعفه وعجزه . هذه هى أخلاق القرآن الكريم التى يدعوا لمسلمين إلى التخلق بها حتى يصبح المجتمع الاسلامى مجتمعاً متكافلاً ومتعاوناً ، حتى لا يظهر فى الجماعة الإسلامية فقير أو محتاج .

يقول – سبحانه وتعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ [سورة المائدة:٢]. وقال – صلى الله عليه وسلم – :"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى منْهُ عُضْوتَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى " . بهذا تسود الامة وينصر المظلوم .(١)

1 - تفسير القرطبى جـ ٩ ، ص ٦٢ ، ٧٥ .

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم .

٢. السنة النبوية المطهرة .

٣. فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، للامام الحافظ ابن حجر العسقلانى . نشر دار الريان للتراث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، تحقيق محب الدين الخطيب .

٤. سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، نشر دار إحياء التراث العربى بالقاهرة .

٥. سنن الدارمى للحافظ الدارمى السمرقندى ، تحقيق احمد وخالد السبع ، نشر دار الريان للتراث ، القاهرة .

٦. سنن الدارقطنى للإمام على بن محمود الدارقطنى ، نشر عالم الكتب ، بيروت . لبنان .

٧. المفهم ، شرح صحيح مسلم للقرطبى ، نشر دار الكتاب المصرى ، القاهرة .

٨. عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى للعينى ، نشر دار إحياء التراث العربى ، بيروت . لبنان .

٩. مجمع الزوائد للهيثمى ، نشر موسوعة المعارف ، بيروت . لبنان .

١٠. سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .

١١. السنن الكبرى للامام البهيقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا – نشر دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .

١٢. البحر المحيط .

١٣. البحر المديد ، لإبن عجيبة .

١٤. التحرير والتنوير ، لعاشور.

١٥. التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزرى .
١٦. التفسير الكبير، للفخر الرازى .
١٧. الزيادة فى كتاب " النهاية " لإبن الاثير.
١٨. المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة الآداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
١٩. بلاغات النساء لطيفور، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دار الفضيلة .
٢٠. تفسير ابن كثير.
٢١. تفسير أبوالسعود .
٢٢. تفسير الخازن .
٢٣. تفسير القرطبي .
٢٤. تفسير النسفى .
٢٥. تفسبر القرطبي ، ط . دار الريان للتراث . القاهرة.
٢٦. تفسير المراغى .
٢٧. تفسير الكشاف ، للزمخشرى .
٢٨. حاشية الصاوى على الجلالين .
٢٩. حاشية الشهاب للبيضاوى ، ط . مؤسسة التاريخ العربى .
٣٠. خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر.
٣١. روح المعانى للألوسى ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
٣٢. فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .
٣٣. لطائف الاشارات للإمام القشيرى ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣م .
٣٤. مختصر تفسير ابن كثير.
٣٥. مفاتيح الغيب .